الدكتور أبو القاسم سعد الله

دراسات في الأدب الجزائري الحديث

دار الرائد للكتاب
الجزائر

الطبعة الخامسة
2007

دار الرائد للكتاب
الجزائر

Tel: 021 542902 / 447272
Fax: 021 449268

مقدمة الطبعة الثالثة*

تتميز هذه الطبعة باضافة ثبت عام يشمل الاعلام والاماكن والمنظمات والدوريات والكتب التي وردت في المتن. وقد فاتنا من قبل وضع هذا الثبت، رغم ضرورته، لأن الكتاب تم طبعه بعيدا عنا. وقد تمكنا كذلك من تصحيح الاخطاء المطبعية التي وردت في الطبعة الثانية ان نظرة سريعة إلى الانتاج الصادر عن الأدب الجزائري الحديث تبرهن على ان الساحة ما تزال غير مكتظة وان هذا الانتاج ما يزال دون المستوى ، كما أن النقاد الذين تناولوه بالدرس لم يبلغوا الشاو المطلوب وإذا استثنينا بعض الاطروحات الجامعية فان النقد الادبي الحر غائب تماما ، وحتى هذه الاطروحات يغلب عليها السرد والجمع والاحكام الجوفاء ، وقلما تميزت بالرصانة والاصالة والزيادة ، ان حالة الادب الجزائري الحديث حالة يرثى لها ، وما أضأل حركة هذا الادب اليوم إزاء حركته خلال الثلاثينات والاربعينات من هذا القرن رغم اختلاف الظروف والدوافع والامكانيات !

ان كتاب دراسات في الادب الجزائري الحديث، رغم صغر حجمه وتقدم عهده، قد اثبت انه راد طريقا مجهولة، وانه وضع شموعا باهرة الضياء في هذه الطريق، وانه ما يزال منطلقًا للنقاد المتوثبين» ومن المناسب ان نذكر ان عددا من الدراسات التي ظهرت بعده قد اقتدت به واستعارت منه حتى عناوين بعض فصوله، ولكن دون التنبيه على ذلك. ورغم ذلك فان صاحب هذا الكتاب لا يدعي ان عمله فوق النقد أو ابعد من النجوم .

أبو القاسم سعد الله

الجزائر في 6 يناير 1985

---

* لقد سبق للمؤلف أن أصدر طبعتين للكتاب قبل أن تنجز الدار التونسية للنشر طبعتها هذه .

مقدمة الطبعة الأولى

كل باحث في شؤون الأدب العربي يصدمه الفراغ المخيف الذي تعانيه المكتبة العربية بخصوص الحركة الفكرية في الجزائر . ولعل مسؤولية هذا النقص تقع على كاهل المثقف العربي نفسه . فطيلة مرحلة النهضة العربية اعتاد هذا المثقف أن يحصر بحثه واهتمامه بجزء معين من الوطن العربي واهمال الأجزاء الأخرى ، مما تسبب عنه تمزيق الحركة الفكرية العربية وأقلمتها . ومن هنا ارتبط الأدباء غالبًا بالأوضاع السياسية في كل جزء من الوطن العربي ، وتبعًا لذلك تطورت الحركة العربية في شكل غير متساو . ولعل الجزائر خير شاهد على ذلك .

فرغم محاولات الجزائريين أن يفكوا الحصار الذي ضربه من حولهم الاحتلال الأجنبي ، فان الادب العربي في الجزائر قد تطبع بطابع خاص نتيجة ضعف اللغةالعربية وندرة الاحتكاك بتجارب الآخرين ، ومن هنا لم تتقدم فنون الأدب الحديثة في الجزائر كالقصة والمسرحية والنقد . فأكثر انتاج الجزائر الأدبي كان في ميدان الشعر . ولكن هذا الشعر ، كان بالقياس إلى التجارب الأخرى المعاصرة ، ضعيفًا من عدة وجوه أهمها ضحالة الثقافة ، والاحتفاظ بالاساليب القديمة ، وقلة التيارات الفكرية . غير ان الفرصة لم تتح بعد للتعريف بهذا الأدب ، وقد كانت هذه الحقيقة هي التي دفعتني الى نشر هذه الدراسات .

بدأت في التعريف بالأدب العربي في الجزائر منذ كنت طالبًا بالزيتونة في تونس . ففي عام 1954 نشرت لي مجلة « الآداب » البيروتية مقالًا أذكر أنه كان بعنوان « أرض الملاحم » تناولت فيه علاقة الأحداث الجزائرية بأدب الملاحم . وبعد قدومي إلى المشرق العربي (خريف 1955) صدمني ضعف العناية بأدب المغرب العربي عامّة وأدب الجزائر خاصة ، فأخذت على عاتقي أن أعرِّف على الأقل بالأدب الأخير . وقد كانت أحداث الثورة في الجزائر تشجعني وتثير حماسي لزيادة البحث . وكانت نتيجة ذلك الجهد بعض الأشعار والأبحاث التي تناولت أدب الجزائر من جوانب مختلفة .

فإلى جانب الشعر الذي كنت أبعثه بين الحين والآخر إلى بعض الدوريات العربية ، نشرت عدة أبحاث مطولة عن الأدب العربي في الجزائر ، تناولت الشعر والقصة والمسرحية والنقد والتراجم . وحين نشرت مجموعتي الشعرية « النصر للجزائر » سنة 1957 استقبلها الجمهور العربي بحفاوة خاصّة . كما استقبل هذا الجمهور بحفاوة أكبر دراستي عن الشاعر « محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث » التي صدرت سنة 1961 . وقد ظلت فكرة جمع تلك الأبحاث في كتاب يسهل تناوله تخامرني منذ كنت بمصر ، غير أن رحلتي الدراسية إلى الولايات المتحدة الأمريكية قد حالت دون تحقيق تلك الفكرة في ابانها . ولكن الفكرة قد عاودتني بعد انتهائي من الدراسة ، كما أن أصدقائي قد شجعوني على طبع ما نشرته في كتاب يكون في متناول الجمهور العربي . وتحت هذا الالحاح عدت إلى مراجعة تلك الأبحاث .

والحق ان هذا الكتاب هو عبارة عن مجموعة المقالات والدراسات التي كنت قد نشرتها في الدوريات العربية حين كنت بالقاهرة (1955 — 1960) . ولم أضف إليها سوى مقالين ترجمتهما عن الأنكليزية أثناء اقامتي بأمريكا . أولهما فصل من كتاب « رسائل من الجنوب » الذي ألفه الشاعر الاسكتلاندي توماس كامبيل والذي تناول فيه بعض خصائص المجتمع العربي في الجزائر خلال القرن التاسع عشر . والثاني مقال كتبه الناقد الأمريكي جورج جوايو عن كتّاب الجزائر باللغة الفرنسية تناول فيه بالخصوص محمد ديب وكاتب ياسين وطابع أدبهما واتجاهاته . وكان الهدف من ادراج هذا المقال

هو اكتمال الصورة بعض الشيء عن أدب الجزائر المعاصر سواء كان مكتوبًا بالعربية أو بالفرنسية .

ومن الواجب أن أذكر بأني لم أعد كتابة هذه الأبحاث ، ولكني راجعتها لضبط تاريخ أو تصحيح عبارة أو نحو ذلك . وكان ذلك رغبة مني في أن تحتفظ هذه الدراسات بطابعها التاريخي والعاطفي . فقد كتبت تحت ضغط الظروف الثورية التي كانت تعيشها الجزائر ، وكتبت بروح خاصة في فترة من العمر لا يمكن التنكر لها حين يقفز الزمن بالانسان من سنة إلى أخرى ومن عقد إلى آخر . وقد دونت أسماء وتواريخ الدوريات التي نشرت هذه الأبحاث حتى يتمكن القارىء المهتم من الرجوع اليها إذا شاء .

وقبل أن أترك هذه الدراسة للقارىء أحب أن أشكر كل الذين شجعوني على نشرها . وأن أملي هو أن يساهم هذا الكتاب في التعريف بأدب الجزائر العربية ، وأن يفتح شهية الباحثين للقيام بأعمال أكثر عمقًا لربط الفكر العربي في جميع أصقاعه خدمة للأمة العربية الواحدة .

أ. سعد الله

القاهرة في 1966/7/9

مقدمة الطبعة الثانية

تمتاز هذه الطبعة بتصحيح الأخطاء التي وردت في الطبعة الأولى ، وبإضافة كلمة كنت قد كتبتها بعنوان « أرض الملاحم » سنة 1954 ، وبحث عن « الجمعيات والنوادي الثقافية » كنت قد نشرته سنة 1959 ، وقد حذفت من هذه الطبعة عبارة « الفصول » لأنها لم تكن موجودة أصلًا وإنما أضيفت الى الكتاب في غيابي .

ولقد مضى على كتابة هذه الأبحاث عشرون سنة تقريبًا . وخلال هذه الفترة ظهرت دراسات كثيرة حول الأدب الجزائري ، جامعية وغير جامعية ، بعضها يؤكد ما جاء في أبحاث هذا الكتاب وبعضها ينقضها . ومن ذلك ما كتبه الدكتور صالح الخرفي عن رمضان حمود ، وما كتبه الدكتور عبد الله ركيبي عن جلواح ، وما كتبه المرحوم سعد الدين بن أبي شنب عن نهضة الثقافة العربية خلال القرن الماضي ، بل وما كتبته أنا شخصيًا عن الشاعر محمد العيد ، وعن الشاذلي القسنطيني ، وعن النهضة الثقافية في كتابي عن الحركة الوطنية الجزائرية .

ولعله من المفيد التأكيد على اني كنت حين كتبت هذه الأبحاث ، أرود طريقًا مبهمًا وأسير بلا دليل ، إذ لا أعرف أحدًا قد أرّخ ، قبل هذه الأبحاث ، للأدب الجزائري العربي أو تناوله بالنقد والتقيم . ومن ثمة أشعر

الآن أن في الأبحاث بعض الفجوات والأحكام المتعسفة أو غير الناضجة أو التي تجاوزها الزمن . ومع ذلك فقد عزمت على تقديمها للطبعة الثانية كما هي ، لأن القراء قد أقبلوا على طبعتها الأولى واستفاد منها الدارسون والطلاب واساتذة الأدب والتاريخ في الجزائر وفي الوطن العربي . ومهما يكن الأمر فإني أرجو أن أكون بتقديمها للطبع من جديد قد خدمت الثقافة العربية في الجزائر . لأن ذلك كان هدفي يوم كتبتها أول مرة وهو ما يزال هدفي مدى الحياة

ابو القاسم سعد الله
معهد العلوم الاجتماعية ـــ جامعة الجزائر
الجزائر في 2 مايو 1976

رأي أوروبي في الأدب الجزائري
أوائل القرن التاسع عشر

توماس كامبل شاعر ومؤلف اسكتلندي ، له مؤلفات عدة في الأدب والشعر الدرامي ، وهو مؤلف كتاب « لذات الأمل » ، وكتاب « رسائل من الجنوب » الذي يقع في جزئين ، والذي أترجم منه هذا الفصل عن الأدب والذوق والثقافة الجزائرية في مطلع القرن التاسع عشر . وكامبل كشاعر ملحمي ورومانتيكي لم يجد بغيته حين زار الجزائر زيارة مطلع وباحث بعد الاحتلال بحوالي ثلاث سنوات . لان الجزائر لم تعرف شعر الملاحم ولا الرومانتيكية في ذلك الوقت . ومع ذلك فإن رأيه يمثل فكرة جديدة في علاقة الذوق الأوروبي بالذوق الجزائري ، كما يساعد ، بلا شك ، على إلقاء الضوء على أدبنا الوطني في عهد مازال الكثير منا يجهلون حتى معالمه التاريخية الأولى .

أما القصيدة التي أترجمها في آخر هذا المقال فلها أهمية وطنية وتاريخية كبيرة . فالشائع أن الوطنية الجزائرية وليدة الحرب العالمية الأولى ، غير أن هذه القصيدة — إذا صحّت — تعكس هذا الرأي تمامًا ، إذ تثبت أن « الضمير الوطني » للشعب الجزائري قد استيقظ وتحرك بمجرد ما حل الغرباء بأرض الوطن . أما أهميتها التاريخية فيمكن ملاحظتها من الاشارات والتصرفات التي تحتوي عليها ، والتي حدثت أثناء عمليات الاحتلال ، بالإضافة الى تمثيلها لفكرة الصراع الملحمي بين الشعب الجزائري وأعدائه .

ان « رسائل من الجنوب » الذي هو في الحقيقة دائرة معارف عن الجزائر ، جدير بالترجمة ووضعه في متناول الباحثين الوطنيين الذين يهمهم وضع « الشخصية الجزائرية » في مكانها تحت الشمس .

(المترجم)

○○

كل الجزائريين * ، بما فيهم اليهود ، يتكلمون لهجة عربية محلية ، رغم أنهم لا يكتبون باللغة العربية الفصحى إلا بعد دراسة وجهد . والحقيقة أن الجزائر لم تعرف المطبعة قبل الاحتلال ، غير أن الفرنسيين أسسوا منذ حوالي سنتين (1832) جريدة باسم « المرشد الجزائري » Moniteur Algerien التي وعدوا بأنها ستحرر باللغتين العربية والفرنسية ، والحقيقة أن هذه الجريدة ما هي إلا صحيفة حكومية ، ولا تحتوي من العربية على أكثر من الشعار ، ولا أظن أنها ستساعد على إنهاض افريقية بأية حال .

فلوبسن الذي كتب عن افريقيا منذ ستين عامًا ، قال في كتابه عن رحلته بأنه كان نادرًا عندئذ أن تلتقي بعالم جزائري ، فإذا صادف والتقيت بأحد فإن مكتبته لا تحتوي على غير القرآن وبعض التفاسير القرآنية ومجموعة من كتب الصلوات والأذكار ، وبعض الأخبار والتواريخ الجزائرية التي يصفها لويسن بعبارات الامتعاض الشديد . فقد قال بأن هذه الأعمال الأدبية لفظية ومحشوة بالعجائب والحماقات التي فاقت كتابات الرهبان الأوروبيين . وعلى أية حال ، فكم كنت أتمنى لو انني أفهم العربية، ولو انني مازلت شابًا لاعتكفت على دراسة هذه التواريخ الجزائرية التي لا ترجع فيما أعتقد الى أبعد من زمان المغامرين بربروس وأخيه اللذين تعتبرهما الرومانتيكية الجزائرية من بين أبطالها المحبوبين .

ومهما كان الأمر ، فإني بعد أن سمعت بأن هناك ما يسمى بالأدب الجزائري الحديث طلبت معلومات من الاستاذ الذي عينته الحكومة الفرنسية لتعليم العربية

* نشر هذا المقال في مجلة « المعرفة » الجزائرية السنة الأولى رقم 7 ، 1963 .

في الجزائر . لقد كان مصريًا ، واسمه ، بعد ربط المألوف والمكتوب ، هو جوني فرعون . غير أنه كان أهلًا لجوني وليس مطلقًا كاسمه من ذكريات البحر الأحمر . عندما سألته اذا كان يمكنه أن يرشدني إلى أي نوع من الشعر العربي الحديث الذي كان قد كتب في الجزائر أو عن الجزائر ، قال متعجبًا : « شعر عربي حديث ! ولماذا ، لم يعد هناك شاعر واحد على وجه الأرض » . وبعد التمعن ، فكرت في أن كلامه كان واضحًا وإن كان غير مفرح . غير أن جوني تابع حديثه قائلًا : « دعني انظر ، فقد يوجد بعض الاستثناء لهذه القاعدة في الأغاني الشعبية التي تدل على حذق وذكاء ، وإن كانت فيها بذاءة بعض الأحيان » . فأجبته بأن ذلك لن يفيدني شيئًا ، يجب أن تساعدني على شعر مقبول أخلاقيًا . فقال : « اوه ، إذن اليك شعرًا مقبولًا ولكن مضجرًا . » وأخيرًا حصلت منه على ترجمة لبعض الأبيات التي لم أتأكد من أنه ترجمها بأمانة ، وفي الحقيقة لقد كان شعرًا مضجرًا حقًا كما وعد .

سأل واعظُ كنيسةٍ كاننغ Canning (1) كيف شعر ازاء الخطبة التي ألقاها أمامه ، فقال كاننغ : « لقد كانت خطبة قصيرة » . قال الواعظ : « اوه ! نعم ، ولكن من عادتي أن أحاول ألا أكون مضجرًا » فأجابه كاننغ : « آه ! ولكنك كنت مضجرًا بالفعل » . وفي حالة شبيهة بهذه ، ورغم أن الشعر الذي ترجم لي لم يتجاوز ستة أبيات ، فقد شعرت بملل جعلني أعتقد أنها كانت مائة بيت . فالشاعر يختم شعره قائلًا : « اكتبوا على قبري بأنني قتيل عيني غزالتي السوداوين » فقلت له : جميلًا فعلت فيك ، أيها الأحمق ! .

والأغاني الشعبية الجزائرية ، بناء على جميع المعلومات ، خشنة جدًا ، فالأبيات التي ترجمها لي صديقي فرعون في الحقيقة مقبولة مع تسامح . فرغم انها متواضعة فانها تعبّر ، مع بعض الملل ، عن عاطفة الحب . غير أن وجود مثل هذه العاطفة لدى الجزائريين يثير عجبي . فقد عرفت من جميع المصادر التي التمستها عن تقاليدهم الوطنية ان الاختلاط الحر البرىء بين الجنسين ، الذي هو مقدمة الحب

---

(1) جورج كاننغ . 1770 — 1827 سياسي بريطاني ورئيس وزراء . (المترجم)

عندنا ، والذي ينضجه التعارف فيجعله صداقة ، ويرقق الشهوة فيحيلها عاطفة ، هذا النوع من الاختلاط غير معروف لدى الشعب الجزائري .

فعندما يرغب رجل أن يتزوج امرأة جميلة ، أو فتاة من عائلة محترمة ، فما عليه إلا أن يتبع احدى طريقتين : رشوة واحدة من خادماتها ، أو استئجار بعض الإناث التجار في الجواهر والحلي لا لتحمل اليها رسالة حب ولكن لتعطيه صورة حقيقية عن شخصيتها ، وعينيها ، وقدها ، ومظهرها ، وبعد ذلك ، فإن في الوصف الصادق الأمين الذي يتلقاه الرجل دائمًا بعض المبالغة لأن مخبريه سيلمحون بمهمتهم إلى السيدة المعنية بالزواج، وهم في ذلك مثل قضاة روسيا ، يأخذون الرشوة من الجانبين . فالخاطبات ، عندئذ ، سيعملن ، بناء على تعريف باكون للشعر ، على التوفيق بين مظاهر الأشياء ورغبات النفس .

وهكذا ، فالمحب ، مع كل الاحلام .بالجمال تملأ قلبه ، قد يجد نفسه ذات صباح رائق متزوجًا الى امرأة شمطاء أو خرقاء ، أما حين ترفع الحجاب عن وجهها فالله يرحمه ! فكم نحن سعداء حين ننظر الى هذه الحالة ، فنحن ننكر عبادتنا حتى للجمال الشخصي عندما لا يهز إرادة النفس الحرة الخيرة . ومن ثمة ، فإني لا أشك لحظة في أن هناك طرقًا خاصة للغزل بين فتيان وفتيات الجزائر لا يمكن معرفتها من الأوصاف التي اعتدنا سماعها عنهم . وبهذه المناسبة فإن الداي الأخير حسين باشا لم ير غضاضة حين عرض على ابنته أن تختار لنفسها زوجًا تحبه . غير أن طريقة هذا الاختيار لم تكن على الأسلوب الرومانتيكي المعروف عندنا . فالداي الجزائري قد أخذ ابنته الى نافذة تطل على ساحة تجمّع فيها ، بأمر الداي ، أجمل فتيان الجزائر وأقواهم ، وسألها أن تختار . وقد اختارت ـــ وهي تسبح في عالم الشعر ـــ فتى جميلًا حرفته المصارعة . ومع ذلك ، ألم يجعل شكسبير روزلند تقع في حب اورلندو حين شاهدته يصارع ؟ إن هذه القصة تبرهن ، على أية حال ، ان إرادة المرأة في اختيار رفيقها قد احتُرمت حتى من طرف داي الجزائر .

ولويسن، رغم أنه لم يكن أكثر مني حظًا في الحصول على ترجمات هامة من الشعر الجزائري ، أشار الى استثناء لهذا الحكم . فقد روى شعرًا نظمه أحد قضاة الجزائر ، ويتخلله النثر أحيانًا ، وعنوانه « حوار بين الخمر والشمعة » . إنه

لعجيب أن هذا القاضي السعيد قد جعل الخمر موضوعًا لشعره . فالمنظر الذي يجري فيه هذا الحوار بين الخمر والشمعة هو غرفة زفاف حيث العروس والعريس قد سكرا بالفرح في لقائهما الأول حين تناولا الكأس المحرمة . والشاعر بطبيعة الحال تصور أن العروسين قد جنح بهما الخيال حتى أنهما قد سمعا الخمر والشمعة تنطقان ، وتدخلان في مناقشة حول مقارنة دعواهما الى الاعتراف بالجميل من طرف العروسين السعيدين . فقد قالت الشمعة في حوارها للخمر : « أنا الشمس في غرفتهما ، أبعث أشعة الضوء في عينيهما ، حين تغيب الشمس لكي يرى كل منهما جمال الآخر » . فأجابت الخمر : « وأنا أبعث حياة جديدة في روحيهما » . أما العروسان فقد أعجبا بهذا الاطراء وشجعاه على الاستمرار ، لكنني أعتقد أنهما أخيرًا سكرا بلباقة الشمعة، ووقعا تحت تأثير الخمر . إن هناك ، كما أعتقد ، ترجمة ألمانية لهذا الشعر . على أن رأي لويسن في هذا الشعر تجعلني أعتقد أن فيه نكهة الاصالة رغم اني أخشى أن يكون فيه بعض البذاءة .

إن نظرة فاحصة الى الجزائريين تجعلني أعتقد أنهم سيصبحون ، ذات يوم ، شعبًا راقيًا على مستوى عال في الآداب والعلوم . فالفكرة الشائعة عندنا أن الجزائريين متوحشون وغير اجتماعيين ، ولكن ذلك الاعتقاد غلط فاحش لا يعادله إلا تسويد وجه عطيل (1) . إن الجزائريين ، بوجه عام ، شعب ذكي واجتماعي . فالكابتن روزيه Rozet يؤكد في كتابه « رحلة في ولاية الجزائر » Voyage dans La Régence d'Alger أن الأغلبية المطلقة من الجزائريين أكثر ثقافة من الأغلبية المطلقة من الفرنسيين . مثلًا لا يوجد إلا عدد قليل جدًا لا يحسن القراءة والكتابة . حقًا أن مدارس الجزائريين لا تتبع النظام البريطاني كما أخبرنا بذلك أحد الذين ادعوا أنهم اكتشفوا أعشاش الخوف (الجزائر) . ولكن الجزائريين يتلقون ثقافة عامة ، وكل

---

(1) عطيل هو بطل قصة شكسبير المعروفة ، وقد اختاره كرمز للغيرة وسوء التصرف ، واعتاد الممثلون الغربيون أن يسودوا وجه عطيل على أساس أنه زنجي رغم أنه كان من المورز أي مغربيًا . ويغلب على الظن أن عطيل كان يرمز به للجزائر لأنها هي التي تسلطت على البحر الأبيض المتوسط من 1516 ــ 1830 . وكلمة « مورز » في الحقيقة يطلقها الأوروبيون على سكان شمال أفريقيا جميعًا وخصوصًا أولئك الذين خرجوا من الأندلس ، غير أن كثيرًا منهم ، ومنهم كامبل نفسه كاتب هذا الفصل ، يطلقونها على الشعب الجزائري فقط ..(المترجم) .

طفل جزائري يتعلم قراءة القرآن ، والكتابة ، والحساب . وقد أشرت من قبل الى العمل التاريخي الذي كتبه مؤلف جزائري ما يزال حيًا (حمدان خوجة) بعنوان « مرآة الجزائر » الذي يعتبر ، رغم بعض الغلط ، عملًا تاريخيًا هامًا .

لقد حصلت على ترجمة فرنسية ، أعتقد أنها ترجمة أدبية ، لقصيدة مؤثرة نظمها أحد شعراء الجزائر المعاصرين ، واذا كانت هذه القصيدة غير هامة من ناحية المضمون فإنها ، على الأقل ، مهمة من حيث الموضوع . على إني أحب أن أنبه الى أنه اذا كانت ترجمتي لهذه القصيدة تظهر لكم مثل الخطبة سيئة الحظ « مختصرة ومضجرة » فإني أرجو ألا تختلط عليكم بالنثر المحض لأنكم ستجدون فيها القوافي حين تبحثون عنها (١) .

رثـــاء الجـــزائر

الجزائر ، كانت منصورة وأميرة ،
من يضمد الآن الجراح التي تعانيها ،
ان قلبها نهر من دموع ،
أواه : سأضحي بحياتي من أجل المنقذ الجزائري
الذي يسحق الصليب من سواحلنا ،
ويعيدك حرًا ، يا وطني ، الجزائر !

○○

لكن الخونة أضاعوا معركتنا،
وأبطالنا قد أعماهم اليأس ،

---

(١) ليس لدي النص العربي لهذه القصيدة الوطنية . وقد ترجمت الى الفرنسية ثم ترجمها كامل الى الانكليزية مع القافية عن الفرنسية ، من غير أن يذكر اسم مترجم النسخة الفرنسية . وكم نكون سعداء لو عثر الباحثون في الجزائر على النسخة العربية الأصلية لهذه القصيدة الهامة . (المترجم) .

فسقطوا كالسكارى محاربًا عن محارب ،
لذلك فقدت صواب عقلي
وجفّت شفتاي فلا تنبسان إلا بالإشفاق
وطار النوم من أجفاني

○○

لقد حل الخراب بمدينتنا ،
وانتصر اليهودي فوق دموعنا ،
ان ضحكته الضبعية قد أصبحت حرة .
وان غبار الهزيمة والعار منتشر في كل مكان ،
فهل أعيش لأشاهدك على هذا الحال ، أيتها الجزائر ؟
يجب أن أفارقك يا وطني ، وأرحل .

○○

إن الحزن يؤلم جبيني طوال الليل ،
ولم يعد النهار يحضر حلاوته المعتادة ،
لقد حكم عليّ أن أعيش ضائعًا في المنفى ،
لأن النصراني قد أصبح يدوسنا .
والكفار يملأون شوارعنا .
وبيوتنا لم تعد هي بيوتنا .

○○

ابكي معي على مجدنا الذي ضاع ،
وأسلحتنا وأعلامنا التي ذهبت ،

فهؤلاء الاعداء قد نشروا أعلامهم على القلاع ،
حيث خلعوا أقفال خزائننا ،
وعيوننا تشاهد وتسبح في الدموع ،
بينما عيونهم تلمع وهم يحصون ذهبنا .

○○

لقد قذفونا من حدائقنا ومنازلنا ،
سائلين ، بلا رحمة ، قطعة من خبز ،
وأبطالنا أصبحوا معزولين ...
أواه : هل أجد ثرى أدفن فيه رأسي الوحيد
حيث ينام أجدادي ،
فإني لا أستطيع رؤية الشمس بعد اليوم !

○○

إن الاعداء دمروا خيامنا وأكواخنا ،
لا ، ان نساءنا بعن لهم جمالهن ،
لقد ارتمين في أحضان الغانمين :
إلى سقاة الخمر الذين دمروا مساجدنا ،
لقد ذهبن إلى أحضان الكفار ،
آه : هل أعيش لأروي هذا العار ؟

○○

لا أطفال سيولدون من فراشنا ،
لأن ثمارنا قد أفسدها العدو ،

وأحرارنا معزولون في الأرض والبحر ،
فهل هذا غضب السماء ؟
لكن الله سيأخذ بيدنا ،
ان رحمته تعم جميع الاشياء .

الادب الجزائري
مؤثراته وتياراته

يمثل الأدب الجزائري صفحة هامة من الأدب العربي * ولئن حالت الظروف دون نشر هذه الصفحة أو إلقاء الضوء عليها ، فان ذلك لا يقلل من أهميتها القومية ، بل ربما حفز الباحثين الى بذل الجهود لنشرها ووضعها في مكانها من تراث الأمة العربية الأدبي . وقدكانت الفرص التي أتيحت للحديث عن الأدب الجزائري قديمه وحديثه ، نثره وشعره ، قليلة جدًا ، حتى لقد ضل بعض الباحثين الطريق ، وأساءوا الى سمعة هذا الأدب في الوقت الذي أرادوا الاحسان اليه .

شخصية الأدب الجزائري : والواقع أن الحديث عن الأدب الجزائري يشبه الى حد كبير كل حديث عن الأدب العربي بصفة عامة في كل بيئة من بيئاته الوطنية . فقد عاش هذا الأدب نفس الظروف والمشكلات التاريخية والفكرية التي عاشها الأدب العربي ، وكانت صلة الجزائر بأوروبا ـــ بحكم موقعها وسياستها ـــ من أسبق الصلات التي نشأت بعد ذلك في الشرق العربي ، فاستفادت من الصلة تجاريًا وحربيًا وإداريًا ، ولكنها فيما يبدو لم تفد شيئًا من ذلك فيما يتعلق بفكرها وحضارتها وفنها وثقافتها ، فبقي هذا الجانب محافظًا راكدًا قديمًا الى أن جاء الاحتلال الذي لم يكن صدمة لجميع القيم السائدة في البلاد بل كان

---

* بحث نشر في مجلة « الرسالة » العراقية العدد 5 و6 السنة الثانية 1960 .

بالإضافة الى ذلك عامل تخريب وبعثرة وتحطيم لكل القيم الفكرية رغم جمودها وركودها وقدمها .

واذا كان الاستعمار قد أفاد بعض البلاد العربية حين نقل اليها المطبعة والصحف والمجالس العلمية ونحو ذلك، فإنه في الجزائر كان على عكس ذلك تمامًا، اذ لم يأت لينشر حضارة وإنما جاء ليسلب أفكار الشعب ، ويزوّر تاريخه ويحطم كيانه ويستغل ثروته ، وبذلك تعرضت شخصية الأدب التي ظلت محتفظة بمقوماتها وملامحها الى هزات عنيفة كادت تفقدها تلك المقومات والملامح ، لانها لم تستطع أن تواجه الغزو الثقافي بنفس العتاد الذي جاء به الاحتلال في عنفوانه وانتقامه . ولم تستطع أن تطور ذاتها بالطريقة التي يفترضها تخطيط العدو وبرامجه في الهدم والتسلط وإزالة المعالم القومية .

جمود الحركة الأدبية : ونتج عن هذا التباطؤ من جانب الحركة الأدبية ، وفقدان التوازن بين قوة العناصر الوطنية وبين وسائل الاحتلال تحجر وجمود في الحركة الفكرية عموما وحركة الادب على الخصوص : فقد تشتتت كل الجهود العقلية المنتجة ، وتشرد الادباء والشعراء الوطنيون ، واندمج بعضهم في حركة المقاومة التي أعلنها الشعب فترة طويلة ضد الغزاة . وشغل الناس عن الأدب والشعر لم يعد من همهم التعبير الجميل، والغزل المليح، والوصف الرائع، لان ذلك لن يغنيهم عن النار التي يتلظون بها فتيلا، ولن يقف بينهم وبين الغاصبين حائلا، بل إنهم لن يجدوا الوقت الذي يستمتعون فيه بمثل هذا الأدب الذي كان يخاطب العاطفة بالغزل والخمر والرياض، ويخاطب العقل بالحكمة والزهد والفلسفة.

وما أبعد الأدب في ذلك الزمان عن أن يدخل معركة سياسية ، أو أن يجسم روحًا قومية ، أو أن يحفز إلى مستقبل وطني فيه عزة وكرامة ، وفيه حرية واستقلال .

لذلك ساد الركود والجمود حركة الأدب ، وكسدت سوق الانتاج حقبة طويلة ، وكأن الأدب أصبح ينتظر عهدًا من الاستقرار والهدوء أو ينتظر بعثًا سحريًا يشيع فيه الحياة لكي ينهض ويتحرك ويعبر عما يجيش في قلوب الناس من

حنين الى حريتهم المفقودة ، ومن تحفز للانطلاق والثورة ، ومن ألم يكاد يمزق النفوس هزيمة ويأسًا ، ويقضي عليها خيبة وانتحارًا .

المؤثرات : وقد عرفت الجزائر نوعا من الاستقرار والهدوء في ظل الاحتلال ، استقرار وهدوء لا عن رضى واطمئنان نفسي ، وتسليم بالواقع ، ولكنه الاستقرار الأليم الذي جاء بعد فشل جميع المحاولات الثورية ، والهدوء المفروض الذي وطده الحديد وباركته النيران والتفوق المادي دخلت الجزائر إذن في عهد الاستقرار والهدوء ، وعاد الناس الى أنفسهم يسألونها ، وإلى أيامهم يذكرونها ، وإلى ديارهم وحقولهم وهي أطلال أو رماد أو هشيم ، فبكوا الديار المحترقة ، والحقول المغتصبة ، وتطلعوا في الأفق لعل وطنيًا يلوح لهم منقذًا ، ولعل أديبًا يهتف بهم صارخًا . ولكن عملية المخاض قد طالت ، وأصوات الأم قدر لها أن تظل مكتومة فتأخر بذلك ظهور القائد والأديب أمدا ليس بالقصير رغم شدة الحاجة إليهما.

وإذا كان ظهور القائد يعنينا هنا ، فإن ظهور الأديب كان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بعدة مؤثرات مهدت له الطريق ، وفتحت أمامه كثيرًا من المنافذ ، وهذه المؤثرات عديدة منها الثقافي والاقتصادي ، ومنها السياسي والديني ، بل منها المحلي المنبعث من داخل الضمير الشعبي وحاجته الى التطور ، والمستمد من خارج الحدود السياسية والجغرافية للجزائر . ولعل المقام لا يسمح بذكر جميع هذه المؤثرات من التفصيل والاسهاب ، ولذلك سنكتفي بثلاثة مؤثرات فقط ، هي المؤثر العربي (الشرقي) ، والمؤثر الوطني ، والمؤثر الغربي . وسنوجز القول في كل منها بكلمة تحدد مفهومه وتذكر الى أي مدى ساهم في دفع حركة الأدب أو أثر فيها .

ولعل أول هذه المؤثرات هو المؤثر الغربي — فقد اتصلت الجزائر بفرنسا سياسيًا واقتصاديًا ، وارتبطت بها ثقافيًا وحضاريًا منذ عام 1830 ، ولم يبق على الباحث إلا أن ينتظر النتائج ، فماذا كانت ؟ الحق أن الاحتلال قد استطاع أن يسيطر على مقاليد النواحي المادية في الشعب ويوجهها لخدمته ، ولكنه لم ينجح في الاستيلاء على التقاليد الفكرية والثقافية إلا بعد زمن طويل . وهو إذ يبدأ في توجيه هذه النواحي لصالحه لم يجد من أبناء الشعب طبقة كبيرة تعترف له بحق الاشراف

على ادارة المؤسسات الثقافية . ولذلك تضاءل عدد خريجي هذه المؤسسات الغربية في اتجاهها وفلسفتها .

وقد استمر هذا التأثر بالحضارة والثقافة الغربية بطيئًا متثاقلًا فلا يجد من الآذان الصاغية والقلوب المتفتحة والعقول المستهلكة إلا أرقامًا قليلة بين قائمة الشعب الضخمة ، لكن هذا البطء بدأ منذ الحرب العالمية الأولى تدفعه الأطماع السياسية ويغريه المستقبل الحضاري المشترك بين الشعبين الفرنسي والجزائري .

وكانت هذه دعوة قد ظهرت بسرعة فائقة مع القيادة السياسية التي سنتحدث عنها . وكان الداعون اليها يحاولون تغطية النقص الفاضح الذي تعانيه الجزائر من حضارتها الشرقية التقليدية ، ولذلك اندفعوا يحملون هذا الشعار (التقدمي) مع الاشتراكية الاستعمارية تارة ومع العقلية العلمية ومبادىء الثورة الفرنسية تارة أخرى . وأدى تطور هذه الدعوة الخطرة إلى ظهور طائفة من المفكرين والأدباء والشعراء بعد الحرب العالمية الثانية ، كانت تجربتهم جزائرية ولكن وسائلهم واتجاهاتهم كلها غربية ، وقد خفّت حدة هذا المؤثر منذ الثورة حيث تغلبت المؤثرات القومية الأخرى ، وبرزت الاتجاهات الوطنية التي طالما خنق الاستعمار أصواتها لأنها تحمل بذور الانفصالية عن فرنسا ، وتعبر عن رأي الشعب في تكوينه الذاتي والاخلاقي والتاريخي الخاص .

هذا هو المؤثر الغربي باختصار كبير ، **أما المؤثر الشرقي** .. فنعني به اقتداء الشعب الجزائري بما يجدّ في الشرق العربي من أفكار واتجاهات وما يحدث فيه من هزات قومية سواء أكان عمادها الماضي ومجده أم الحاضر في قلقه وتحفزه .

وقد كان الشرق العربي غنيًا بالتجارب العقلية والثورية منذ النصف الثاني من القرن الماضي ، تجلت هذه التجارب في علاقته مع الاتراك ومحاولته التخلص من حكم العصور الوسطى الذي سنُّوه وحافظوا عليه لا سيما منذ بدأوا محاربة القوميات الناشئة في الوقت الذي أعلنوا فيه شعاراتهم القومية . كما تتجلى تجارب الشرق مع الأجانب الذين صمموا على غزوه واستغلال ثرواته وتقسيمه إلى مناطق نفوذ . وأخيرًا تجربة الشرق العربي مع نفسه ، مع حكامه ورؤسائه ، مع احزابه

وقواده ، مع تقاليده وعاداته العتيقة التي أخذ يعيد النظر في كثير منها ويضع علامات الشك والاستفهام أزاءها .

ولم يكن الشرق بواقعه المذكور منفصلًا عن الجزائر رغم ما بناه الاستعمار من حيطان للفصل بين الجزائريين وأشقائهم . فقد كانت كل خطوة تحررية ، أو دعوة اصلاحية ، أو ثورة أدبية يصل صداها بسرعة مذهلة الى الجزائر ، وتتفاعل مع الجيل الذي يستقبلها مرحبًا مستفيدًا من خبرتها وحرارتها . وهكذا كان الشرق العربي مؤثرًا حيويًا في اتجاه الأدب الجزائري كما كان مؤثرًا حيويًا في الاتجاهات السياسية والاصلاحية ، وقد تطور هذا التأثير بحسب الفرص التي أتيحت له فكان في أواخر القرن التاسع عشر ضيقًا محدودًا ، وكان في أوائل هذا القرن أكثر اتساعًا وأشد حرارة . ثم أصبح قدوة بارزة للأغلبية الساحقة بين الجزائريين منذ ظهور الدعوة الاصلاحية ومؤيديها من الطوائف الأخرى . ولعل هذا المؤثر — بالإضافة الى المؤثر السياسي — هو الذي أدى في النهاية الى الانفصال التام عن فرنسا في مفهوم الثورة الوطنية الحاضرة .

أما المؤثر الوطني : فنعني به مجموعة الأحداث الكبيرة التي ظهرت في الجزائر متخذة لها من السياسة عنوانًا ، ومن الوطنية شعارًا ، ومستهدفة جمع الشعب تحت راية واحدة ، زاحفة به نحو تحقيق آماله في الاستقلال والحرية . والواقع أن هذا المؤثر كان قد تأخر طويلًا عن موعده رغم الحاجة اليه ، فقد مضى على الاحتلال أكثر من سبعين سنة دون أن تظهر قيادة وطنية واعية في الجزائر ، ولسنا الآن نبحث في الاسباب التي أدت الى هذا التأخير ، ولكن لا بد لنا من القول بأن الاستعمار قد حطم جميع المقومات الاساسية التي تؤدي أو تساعد على خلق هذه القيادة . واستطاع بفضل الجهل المطبق أن يخلق من حوله صنائع تباركه وتدافع عنه ، كما أن الثورات الدينية والانتفاضات القبلية التي كانت تقوم من وقت لآخر قد ساعدت الاحتلال عكسيًا — على ضرب وتشتيت جميع العناصر الوطنية ... وقد أدى هذا وغيره الى نتيجة سيئة جدًا وهي تأخير ظهور القيادة الوطنية الواعية ، ثم هي إذ تظهر — بعد الحرب الأولى مباشرة — لا تحمل معها أي مفهوم ثوري أو مبدأ انفصالي عن فرنسا ، وكل ما جاءت به إبان ظهورها هو الدعوة الى المساواة في ظل القانون الفرنسي ، والمناداة بتطبيق نصوص الدستور

الفرنسي على الجزائر دون نظر إلى ما يميز الجزائر تاريخيًا وذاتيًا وثقافيًا عن فرنسا وبالتالي ما يبعدها ويجعل من المستحيل تطبيق نصوص هذا الدستور على أبنائها (1) .

وقد عبرنا هنا بالقيادة الوطنية لتنطوي تحتها جميع المنظمات الوطنية سواء أكانت سياسية أم غير سياسية ، ونحن لا يعنينا من هذه القيادة إلا تطورها وتفتحها وتأثيرها في الأدب بمقدار ما يحتوي عليه تطورها من عمق ، وما يشتمل عليه تفتحها من واقعية . ذلك أنها قد مرت تقريبًا بثلاث مراحل رئيسية ، هي مرحلة التجربة ومرحلة الانطلاق ومرحلة التجمد . ولم تكن ثورة نوفمبر إلا الانفجار التلقائي الذي أدى اليه جمود القيادة الوطنية . ولذلك كان الأدب عبر هذه المراحل الثلاث مشدودًا بالحديد تارة وبالقطن تارة أخرى ، أي أنه لم يكن مرتبطًا بها ارتباطًا جذريًا ، فكان يتجاوب معها ويتصف بها في بعض المبادىء الوطنية وكان ينفصل عنها أو يناهضها اذا هي حادت أو تجمدت ، ومن ثم يمكن القول بأن الحركة الوطنية قد أثرت في الأدب في جميع مراحلها ، غير أن هذا التأثير اتخذ شكل التأييد المطلق وأغنى الأدب بتجارب سياسية في بعض الأحيان ، واتخذ مرة أخرى شكل المعارضة والدعوة الى مفاهيم جديدة تحقق للشعب حياة أكمل وأوفر كرامة من حياته في ظل الاحتلال .

هذه هي أهم المؤثرات وأشدها تعميقًا لحركة الأدب في الجزائر ، وقد اختصرنا سردها اختصارًا نرجو أن يكون مضيئًا لفكرة العلاقة بين الأدب وبين دوافعه الأصلية التي أعطته نسغ الحياة ، وحددت له تياراته التقليدية أو الرومانتيكية أو الواقعية . ويهمنا الآن أن نتحدث عن أهم التيارات الأدبية التي ظهرت في الجزائر متأثرة بالمؤثرات السابقة أو منفصلة عنها .

التيار التقليدي : لم يظهر هذا التيار جديدًا في الوسط الأدبي ولكنه كان استمرارًا للحركة القديمة شعرًا ونثرًا . وكان عماد هذا التيار المحافظة على عمود الشعر القديم ، والاحتفاظ بخصائص القصيدة العربية الموروثة دون تطوير وتجديد . فالقافية واحدة ، والوزن واحد ، والمعاني ساذجة مقلدة ، والموضوعات لا تخرج

(1) حول هذه النقطة لا بد من الرجوع الى كتابنا « الحركة الوطنية الجزائرية » ج 2 ، ج 3 .

عن الرثاء والمدح ، والزهد والارشاد . والأسلوب مهلهل ، حائل الألفاظ ، بارد الصور ، وبالجملة فقد كان الشعر بضاعة رائجة عند الفقهاء وأشباه الفقهاء من الذين كانت ثقافتهم بعض دواوين الشعر التليدة الى جانب مجلدات الأصول والحديث والتفسير . أما في النثر فقد كان عماد هذا التيار التقليدي السجع وتطبيق ألوان البديع على الرسالة أو المقامة أو التأليف . بل حتى المقالات الصحفية ، والخطب المنبرية . وكان الناثرون من هذه الطبقة جماعة تخرجوا من مدارس الحكومة أو درسوا في الزوايا وبعض المساجد دراسات حرة لم يخرجوا فيها عن فلك النحو والصرف والبلاغة في مفهومها القديم ، ولم يتصلوا فيها من قريب أو بعيد بحياة الثقافة الغربية الحية التي أصبحت قريبة منهم في لغة فرنسا وثقافتها ، أو بحياة الثقافة الشرقية المتطورة التي كانت تصل اليهم عن طريق الصحف والمجلات والكتب والرواة .

وقد مثل هذا الاتجاه أصدق التمثيل جيل كامل على رأسه بعض الشيوخ أمثال أحمد كاتب الغزالي ، وعاشور الخنقي ، والمولود بن الموهوب . فإن هؤلاء رغم معاصرتهم للأحداث الهامة التي عاشتها الجزائر نجدهم لا يمثلون عصرهم ولكنهم كانوا يعيشون في ماضيهم الأدبي بكل ما فيه من تقليد مخجل ، وجمود مفرط ، وسلبية متناهية . ونحن لا نشك في أن هذا التيار كان صنيعة بعض المؤثرات التي سردناها ، ولكن هل يغفر له هذا الهروب والمحافظة ؟

التيار الرومانتيكي : كان للوضع السياسي ، وتدخل الاستعمار في كل شيء وتجريد الشعب من مقوماته الروحية والقومية ، وعزل الأدباء والشعراء عن الحياة العامة بكل ما فيها من صخب وضجيج وصراع ، كان لهذا كله دافع قوي وجّه بعض الأدباء الى اتجاه فيه كثير من الهروب والنقمة والاحلام . ولم يكن هذا التيار الذي ظهر بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة إلا رد الفعل للأوضاع التي وصفناها . ولعله إذ يكون نتيجة محتومة لعوامل اجتماعية وسياسية خلقها الاحتلال، متأثر بعاملين آخرين هامين أحدهما وصول المبادىء الرومانتيكية من فرنسا الى الجزائر ، وتأثر الجيل الدارس للثقافة الفرنسية بتلك المبادىء وما تحمله من بذور ثورية وأنغام حزينة ، وصور بيانية حالمة جديدة .

أما الثاني فهو تأثر أدباء هذا التيار بكل من مدرسة المهجر وجماعة أبو للو الرومانتيكيتين ، ذلك أنّ أدباء الجزائر لم يكونوا مفصولين عن تطور الحركة الشعرية في الأدب العربي ، ولا سيما أولئك الذين يلمون إلمامًا كبيرًا بالثقافة العربية القديمة ، فقد كانوا دائمًا يرقبون ما يجدّ فيها من صور وأوزان ، وما يطرأ عليها من تغييرات ، حتى اذا أعجبوا بها أو ببعض قادتها تبعوهم ومارسوا اتجاههم في سرور واعتداد ، ولم تكن مدرسة المهجر إلّا عربية مجددة في شيء من الحرية والسماح ، ولم تكن جماعة ابوللو إلّا عربية متطورة في شيء من اليسر والترخيص . وقد اقتدى الشابي في المغرب العربي بالمدرسة الأولى وتحمس لها ، وواكب الثانية ودعا اليها وأعلن رأيه في شعره الناطق بالتجديد ومحاولة الثورة على مفاهيم الادب القديم ، ولكن أدباء الجزائر لم يأخذوا هذا التيار الشرقي الغربي متحمسين ، بل أخذوه محتاطين له راضين عنه في قرارة نفوسهم ، وقد انعكس هذا الرضى والاحتياط في شعر جماعة من الشعراء كان من بينهم الطاهر بوشوشي ، وعبد الكريم العقون ، والاخضر السائحي (1) .

التيار الواقعي : وقد جاء هذا التيار كنتيجة لتطور الحركة الوطنية في الجزائر ، فبعد تبلور المفاهيم القومية في أذهان الناس ، ووضوح المبادىء السلمية أو الثورية التي اعتمدت عليها الحركة في خط سيرها المتعرج الطويل ، بعد هذا كان التعايش بين التيار التقليدي والتيار الرومانتيكي قد بدأ ينفصل ، وأخذ يفسح المجال لظهور تيار جديد يحمل معه قوى اندفاعية وإمكانيات تعبيرية هائلة . والحق أنه كان لهذا التيار فرعان : فرع عربي اللغة واضح الأهداف ، شديد الارتباط بالشعب ، كثير الاعتماد على الجمع بين القديم والحديث ، وقد تمثل هذا في الشعر العربي الذي نظم بين 1930 — 1954 . وفرع آخر فرنسي اللسان ، غامض الأهداف ، كثير الاعتماد على الحديث ، وقد تمثل هذا في الرواية والقصة وبعض الأشعار المستمدة من صميم الحياة الشعبية ، وكان ظهوره بين 1946 — 1954 .

---

(1) انظر دراسة عبد الله ركيبي عن الشاعر جلواح في (الشعب الاسبوعي)، عدد 22 نوفمبر 1975 وما بعدها، وكذلك دراسة صالح خرفي عن رمضان حمود في (شعراء من الجزائر)، 1969.

ولعل المتتبع للتيارات الأدبية في الجزائر يجد أن خلاصتها جميعًا هو التيار الواقعي الذي ظهر كما قلنا في ظل الحركة الوطنية واستمد منها صوره وحرارته وصدقه ، واتصل معها بالشعب الذي زوده بالعادات والمعتقدات وطرق العيش التي كان أدبنا التقليدي أو الرومانتيكي بعيدًا عنها ، إمّا ترفعًا وكبرًا ، وإمّا هروبًا وعجزًا عن مجابهتها بصراحة وقوة .

خاتمـــة :

هذه هي أهم المؤثرات والتيارات التي ظهرت في أدب الجزائر الحديث . ونلاحظ في غير عناء أن المؤثرات كثيرة متباينة ، وأن التيارات عديدة متشابكة . فمن الصعب الفصل بين فترة وفترة في تطور الأدب سيما اذا كانت جميع الفترات متشابكة تسير في خط يغلب عليه الاعتدال والتوافق .

كما يلاحظ قارىء هذا البحث أنّي تجنبت الشواهد ، أو اضطررت الى تجنبها . وهذا في الحقيقة يعود الى اني أرغب في الحديث عن الأدب وتحديد مفاهيمه وتياراته أكثر من رغبتي في الحديث عن شواهده ومناقشة تمثيلها أو عدم تمثيلها للفكرة التي أتحدث عنها ، فالأدب الجزائري لا يزال « خامًا » وكل حديث عنه سيكون جديدًا وطريفًا مهما خلا من الشواهد .

تصميم للشعر الجزائري الحديث

تمهيد :

يخطىء من يظن أن العروبة قد اختفت من الجزائر * ، وأكثر من ذلك خطأ أولئك الذين يحسبون أن ضفاف المتوسط ومروج الأطلس لم تلد شعرًا ولا شعراء ، وأن الأرض التي تنافس أوربا في جمالها وروعتها قد عقمت فلم تنجب أكثر من (المقرى) و(ابن خميس) ، ولم تمنح الأدب العربي سوى روافد من بجاية وتلمسان وقسنطينة . ذلك أن الجزائر العربية ما تزال على عهدها تضيء العبقرية وتبعث المواهب وتنتج الشاعرية وتزف الى الأدب العربي بين الحين والآخر معطيات جديدة .

إن الذي ساعد على هذا الخطإ في فهم طبيعة الجزائر الحقيقية عاملان :

الأول : انقطاع الجزائر لظروف قاهرة عن شقيقاتها العربية ، والثاني رضى المفكرين العرب بهذا الانقطاع حتى تصوروه أمرًا فوق التفكير وخارج الطاقة . ومن ثمة حسبوا الجزائريين في دار غربة ، واعتبروا ما جاء من الجزائر انتاجًا أجنبيًا لا عربيًا وكلفوا أنفسهم عناء البحث والتنقيب والسفر في سبيل ما ينتج الآخرون ،

* بحث نشر في مجلة الآداب اللبنانية عدد 12 ، 1957 .

ولكنهم لم يفعلوا شيئًا من ذلك ليعرفوا عن أدب الجزائر ما حجبته الظلمات وغطته ثلوج الشتاء القاسي . غير أن هذا لا يعفي الجزائريين أنفسهم من التبعة أو يخفف عليهم ثقل الامانة التي يتحملونها أمام فكرهم وأدبهم وتاريخهم . فقد خلدوا الى السكينة ، وصمتوا صمتًا جعل الآخرين يعدونهم في قافلة الأموات ، بينما كان من المهم أن يصمدوا من أجل رسالة الادب حتى النهاية وإذاعتها في الآفاق حتى تتجاوب مع الأفكار الأخرى .

ولعل الذي ساعد على بقاء الجزائر قرنًا وربع قرن تحت الاستعمار هو الفراغ الأدبي الذي كانت تعانيه ، والذي جعل كل شيء صامتًا لا ينبس ، هادئًا لا يتحرك ، راضيًا لا يتمرد . ذلك أن الأدب الجزائري الحديث ، وخصوصًا الشعر ، لم يكن منذ ظهوره محدود الهدف ، عميق الصوت ، قائد الخطوات ، وإنما ظهر الى جانب النشاط الوطني الآخر ، وسار معه دون أن يتقدمه خطوة واحدة رائدة أو يتمرد على مفاهيم معينة ذاتية .

وليس معنى هذا أن الأدب الجزائري قد بلغ درجة يحسد عليها أو أنه شارف الكمال . كل ما يعنيه هذا التمهيد هو النص على أن للجزائر قدمًا راسخة في الأدب العربي وأن لها انتاجًا حديثًا جديرًا بالدرس . ومهما كان شأن هذا الأدب من الجودة أو الانحطاط ، فإنه قد كان تعبيرًا عن الحياة التي عاشتها الجزائر وراء القضبان عشرات السنين وصورة للصراع من أجل البقاء . وهذا لا يعني بالطبع أن ذلك الأدب كان نزوعًا الى هدف أو بشيرًا الى مجهول . ويكفي الشعر الجزائري أنه احتفظ بميزة الصدق ، وأنه كا صدى لخلجات الشعب وأناته ، وصوتًا لكفاحه منذ استهل ، وما يزال معه جنبًا الى جنب لا يفتر ولا يتلفت الى الوراء ولا تذهله الصفحات التي يتلقاها من وقت لآخر من يد غير رحيمة .

1) ان القرون الثلاثة التي سبقت الاحتلال الفرنسي كانت ، من الناحية الأدبية والفنية ، تكاد تكون عقيمة .

2) ان الغزو الفرنسي ، رغم الارهاب والجرائم التي صحبته ، كان مبعث يقظة شعبية تمثلت مرة في المقاومة المسلحة وأخرى في النشاط الفكري .

3) ان النظام الدهني الأوتوقراطي الذي اتبعه الدايات في الجزائر قد حل محله

العنف الدموي والاستعمار المباشر على يد الفرنسيين . وقد أدى هذا التحول في الحكم إلى تحول في التعبير وأهدافه ووسائله .

4) ان جيلًا كاملًا من الشعراء قد ظهر في النصف الثاني من القرن الماضي . وقد أسهم هذا الجيل بنصيب وافر من الموضوعات والشعارات والأساليب الشعرية .

5) ان الروح الانقلابية في الشعر وارتباطه بالقضية الوطنية سلبًا وايجابًا يجعلان الباحث يحكم بأن مرد ذلك كان تطور المفاهيم السياسية والأدبية المعاصرة ، ولذلك فان من الممكن اعتبار شعر الأمير عبد القادر آخر مرحلة للشعر القديم في الجزائر .

والحق ان الاحتلال الجاثم على صدر الجزائر لم يمكن الباحث من الاطلاع على انتاج القرن الماضي ليعرف عن كثب مقدار تقدم هذا الشعر أو جموده ، وعلاقته بالموضوعات التي تناولها ، وأهمية الأهداف التي بشر بها (1) . غير أن من الممكن التوصل إلى بعض النماذج التي تعود إلى الربع الأخير من القرن السابق ، والتي اشترك في انتاجها غير واحد من شعراء تلك الفترة السوداء من حياة الجزائر الأدبية . وهذه النماذج تثبت بأن موضوعات الشعر في ذلك الحين كانت لا تعدو الحماس والفخر والرثاء والوصف ، كما شاع فيها المدح والغناء . أما الممثلون لهذا الشعر فهم شيوخ فاتح القرن الحالي الذين حملوا معهم بقايا البضاعة الشعرية التي سادت عهد شبابهم وكهولتهم . وقد كادت تلك البضاعة تكون كاسدة لولا الامتداد الطبيعي والعاطفة الأصيلة نحو العروبة التي كان الحفاظ على القرآن الكريم رمزها الأسمى . كما ان الاحساس بالضغط الشعبي والعالمي قد دفع بأولئك الشعراء إلى محاولة التجاوب مع العصر ، ولكن دون نجاح ملحوظ .

وتمشيًا مع هذه الروح التي مثلها شعراء آخر القرن الماضي واوائل القرن الحالي يعثر الباحث في أشعارهم على مدائح نبوية على نسق البردة والهمزية ، وعلى روح

---

(1) انظر كتابنا : (محمد الشاذلي القسنطيني) دراسة من خلال رسائله وشعره ، فهو يلقي ضوءًا على الحياة الأدبية في القرن الماضي .

دينية قانعة بالعيش في المأساة التي كان يعانيها الشعب الجزائري كما يجد الباحث هؤلاء الشعراء يتواصون بالعمل النافع في العالم الآخر كأنهم على أبواب القبر . والسر في هذه الروح العازفة اليائسة عن ملذات العيش وكرامة الحياة هو ما وصلت اليه الجزائر آنذاك من التجريد الذاتي ومحاولة قتل الروح الوطنية على يد الغزاة الفرنسيين . ومعنى ذلك أن الشعر ، مهما كان يبدو الآن ضعيفًا حالكا ، كان يمثل تلك الفترة أصدق تمثيل .

ولكن روح اليأس التي سادت الشعر كانت قد تجاوزته إلى المظاهر الأخرى للحياة الجزائرية في مطلع القرن الحالي ، وذلك نتيجة للصدمات والهزائم التي منيت بها الجزائر كلما حاولت الانفلات من قبضة عدوها . ذلك ان هذا الجزء من الوطن العربي لم يعرف الهدوء أو تذوق طعم الراحة منذ بداية الاحتلال . فقد أعلن الجزائريون أكثر من ثورة وتمردوا على المحتل أكثر من مرة وقاوموا عدوهم بشتى الوسائل ، ولكن هذا العدو قابل حركتهم دائمًا بالقوة مرة وبالوحشية أخرى ، فكانت الهزيمة حليف الجزائريين نتيجة لفقدان التكافؤ المادي والمعنوي . غير أنه شيئًا فشيئًا بدأ الجزائريون يستيقظون الى أنفسهم ، وسرعان ما تبينوا أن هذه الطريقة الفجة في مقاومة العدو كانت غير مجدية ، بل قد تؤدي بالشعب إلى الفناء .فإذا كان الموقف يقتضي سياسة وحكمة واجهوه بهما، وإذا كان يتطلب ثورة وعنفًا كان لهم من العدة والاستعداد ما يحقق لهم آمالهم .

وهكذا تطور الشعور السياسي — الوطني في المقاومة الجزائرية للاستعمار تطورًا جعل الشعر يتقدم خطوات بالمفهوم الكفاحي . وقد ظهرت هذه الظاهرة بوضوح عشية الحرب العالمية الأولى . ثم حاربت الجزائر مجبرة مع فرنسا ، ولكن الجزائريين خرجوا من هذه الحرب بتجارب ثمينة انضافت إلى خبراتهم التي اكتسبوها نتيجة محاولاتهم الفاشلة ضد فرنسا . كما أسفرت الحرب عن ظهور حركة وطنية بقيادة الأمير خالد . وبدأ الصراع السياسي بين الجزائر وفرنسا يزداد حدة على مر السنين إلى عام 1925 .

انبثاق الشعر :

كان الغرض من هذه الجولة القصيرة القاء بعض الأضواء على أول انبثاقة

للشعر الجزائري بالمفهوم الحديث ، ورسم خط لسير الحركة الشعرية يتبين منه القارىء مدى ارتباط هذه الحركة بالتيارات الأخرى ، سياسية أو غيرها . والحق أن الشعر الجزائري لم تغره السياسة مهما بالغت في الجاذبية ، فلم يسر في ركاب أي حزب ، ولم يكن بوقًا في انتخابات أو جرسًا في كرسي معين . غير أنه يؤخذ على هذا الشعر انه كان أحيانًا — كالشعر الطرقي — يجانب التيار الوطني المندفع ويكتفي بالدوران حول نفسه أو في حلقة مفرغة فيها كثير من التعفن والذباب . ولذلك فانه لا يمكن للباحث أن يعير اهتمامًا لهذا الشعر . وحسبه منه انه لم يجد أي صدى ولم يحدث أي اتجاه . وبالتالي مات في مهده إلى الأبد .

وسواء أكان من الخير للشعر أن ينضمّ إلى حزب سياسي أو يبقى حرًا يعالج مشاكل الوطن بطريقته الخاصة ، فانه من الضروري أن يختار اتجاهًا معينًا يجاهد من أجله حتى الانتصار . وهذا بعينه ما فعله الشعر الجزائري . حقًا إن هذا الشعر لم ينضمّ إلى الأحزاب السياسية . ولكنه لم يبق على الهامش يقدح هذا ويطرب ذاك ، بل اختار منظمة وطنية أخرى غير سياسية بالرغم من أنها كانت تحمل شعارات (الاخاء ، العدالة ، المساواة ، الحرية) ، تلك هي جمعية العلماء التي أسسها الامام عبد الحميد بن باديس في أوائل العقد الرابع من هذا القرن . وقد تسترت هذه الحركة أول مرة تحت تعاليم الاسلام واللغة العربية ومحاربة الخرافات وحفظ شخصية الجزائر ، ولكنها ما لبثت — بعد أن تركزت وأصبح لها جمهور قوي أن أعلنت أن المبادىء السابقة تستلزم انفصال الجزائر عن فرنسا . وليس معنى ارتباط الشعر الجزائري بالحركة الاصلاحية انه انعزل تمامًا عن بقية الاتجاهات الأخرى ، ولكن الذي حدث بالذات هو انه كان ينظر إلى القضايا الوطنية جميعها من زاوية واحدة هي زاوية الاصلاح الثقافي والاجتماعي .

ولدراسة ذلك الشعر دراسة تتمشى مع الآراء السابقة وضعنا له هذا التصميم . وذلك بتقسيمه حسب الفترات التي يكثر فيها الاصطراع الشعبي . وتتدافع أثناءها الأمواج الوطنية في أشكال مختلفة . ومن الممكن أن يكون هذا التصميم على النحو التالي :

1) شعر المنابر من أواخر القرن الماضي إلى 1925 .

2) شعر الأجراس 1925 — 1936 .

3) شعر البناء 1936 — 1945 .

4) شعر الهدف 1945 — 1954 .

5) شعر الثورة 1954 .

ويجب أن يكون واضحًا أن تناول الشعر على هذا النحو لم يكن مستندًا على اعتبار أن كل فترة تمثل حدًا فاصلًا . ان المقصود من ذلك التناول يقوم على تتبع الحوادث التاريخية ومدى تأثيرها في الشعر . ولذلك فانه في أحيان كثيرة يصعب التمايز في الطابع العام لهذا الشعر . على أن هناك موضوعات أخرى ، إلى جانب التقسيم المشار اليه ، سيدرسها هذا البحث في شيء من الايجاز وهي :

(1) موضوعات الشعر . (2) حركة التجديد . (3) خصائص الشعر . (4) ثقافة الشاعر .

شعر المنابر الى 1925 :

في هذا الشعر كثير من رواسب الماضي ومخلفاته . ونحن إذ نطلق عليه هذا الاسم نقصد المعنى اللفظي للعبارة ، فهو شعر منبري لحمًا ودمًا . ذلك أن أساسه الوعظ والارشاد وأصباغه دينية يكثر فيها لفظ الاسلام والاصلاح والسلف وما شاكلها . كما أن أهدافه اصلاحية ترمي إلى انماء الوعي الشعبي عن طريق الدين والمبادىء الخلقية . وقد سبقت الاشارة إلى أن الشعر الجزائري عامة كان ينتسب إلى الحركة الاصلاحية، ولذلك فقد كان على شعر المنابر أن يوضح اغراض هذه الحركة ويصوغها في أثواب دينية تستميل الشعب وتبعث فيه الحماسة واليقظة كما تفعل الكلمات المنبرية البحتة .

ولكي تدرك مهمة هذا الشعر يجب أن تتبع المدى الذي كانت عليه الجزائر آنذاك من الشعور بالخيبة والاستسلام للخرافات والأوهام والعقد النفسية المتراكمة نتيجة لعاملين : الأول الغزو الداخلي الذي كان يشنه المشعوذون والرجعيون ، والثاني الغزو الخارجي الذي كان يقوم به أصحاب الأهواء والمطامع من أذناب الاستعمار . لقد عانى شعر المنابر كثيرًا في سبيل بلورة الأفكار الاصلاحية كما

قاسى أصحابه العذاب والتنكيل في سبيل تعريب الجزائر وابقاء كيانها الوطني دون اندماج أو ذوبان في الشخصية الفرنسية .

وقد كانت الوسيلة التي اعتمد عليها شعر المنابر في الاتصال بالشعب هي الصحافة ذات اللسان العربي التي أنشأتها حركة الاصلاح وغيرها ، مثل (الاقدام) و(المنتقد) و(الشهاب) . ومن تلك الوسائل أيضًا الاجتماعات العامة التي تحمل طابع المناسبة مثل تدشين المدارس الحرة ، وإحياء المواسم الوطنية والدينية ، والحفلات الخيرية والمدرسية . كما لعبت المدرسة دورًا هامًا كوسيلة لنقل الشعر إلى الجمهور . ذلك أن أكثر شعراء هذه الفترة كانوا معلمين لهم اتصال مباشر بتلاميذهم . وكثيرًا ما نظم هؤلاء الشعراء قصائد خاصة لهذا الغرض ، من هؤلاء عاشور الخنقي ، عبد الرحمن الديسي ، أبو اليقظان ، الطيب العقبي ، محمد اللقاني ، السعيد الزاهري ، الهادي السنوسي ، أحمد الغزالي ، الجنيد أحمد مكي . ويجب هنا التنبيه إلى أن هؤلاء الشعراء لم يكونوا كلهم اصلاحيين في أغراضهم الشعرية ، فقد تناولوا بالاضافة إلى ذلك ، موضوعات أخرى غير الاصلاح ، ولكن الطابع العام لشعرهم كان الاصلاح في ثوبه الوقاري المتواضع .

ولا بأس من ذكر نموذج من هذا الشعر يصور الحقيقة التي وصفناه بها ، وسنذكره من غير قصد من بين عشرات النماذج التي بين أيدينا . يقول الشاعر محمد اللقاني ، أحد شيوخ الشعر الجزائري الكلاسيكي من قصيدة نشرها في جريدة (الاقدام) الوطنية :

بني الجزائر هذا الموت يكفينا ... لقد أغلت بحبل الجهل أيدينا
بني الجزائر هذا اللهو أوقعنا ... في سوء مهلكة عمت نوادينا
بني الجزائر هذا الفقر أفقدنا ... كل اللذائذ حينًا يقتفي حينا
بني الجزائر استيقظوا فلكم ... اذاقنا اللهو والاهمال تهوينا
بني الجزائر ما هذا التقاطع من ... دون البرايا.. عيوب جمعت فينا
فقر وجهل وآلام ومسغبة ... يا رب رحماك هذا القدر يكفينا
حياتنا قط لا يرضى بها أحد ... وعيشنا صار زقوما وغسلينا
يا دهر رفقًا بأغنام مقطعة ... عثى بمربعنا سيد ليبلينا

أما النموذج الذي نذكره دليلًا على أن هذا الشعر لم يكن ملتزمًا للمنهج الاصلاحي في كل موضوعاته فهو للشاعر الجنيد أحمد مكي . فقد نقلت فرنسا هذا الشاعر من وطنه الى (السودان الفرنسي) آنذاك لادارة مدرسة هناك ، ولكنه حين أراد الاتصال بالافريقيين جافوه لبياض بشرته ولأنه كان يضع على رأسه قبعة ضد الشمس . ولكن الشاعر ضاق من الوحدة فاتخذ غزالا أسماه « سهيلًا » للاستئناس به . فهو يقول من قصيدة طويلة مليئة بالتأمل عنوانها « شاعر في غربته » :

إن ملت للعرب قالوا	أ للعربي وصال
أو ملت للسود قالوا	ذا أبيض مختال
أو ملت للبيض قالوا	صفاء هذا خيال
يا ليت شعري لماذا	هذا القلى والمقال
والاصل أصل فريد	والمرء للمرء آل
لما رأيت نفورا	والحب داء عضال
خطبت للوحش ودا	فجاء منه غزال

شعر الأجراس : 1925 ـ 1936 :

استبدل الشعر في هذه الفترة نغمة جديدة لم تخرجه عن النقطة التي بدأ منها ـ الاصلاح ـ ولكنها كانت نغمة تمتاز بالقرع والاهتزازات المباشرة . ومردّ هذا التطور من المنبر إلى الجرس أن الجزائر شهدت تحولات سياسية جذرية ، وميلاد جمعية العلماء التي كانت حركة اصلاحية غير رسمية . كما شهدت الجزائر مولد الحزبين الشيوعي والاشتراكي . وظهرت جريدة (البصائر) وتقوت مجلة (الشهاب) وغيرهما من الصحافة الوطنية . وخلال ذلك امتلأ الجو الجزائري بالغبار ، وانعقدت في سماء الوطن كثير من السحب التي كان منها ما ينقشع سريعًا ومنها ما يدوم طويلًا ، ومنها ما ينعش الناس ويبشرهم بخير عميم ومنها ما يحز فيهم ويبعث الكآبة وخيبة الأمل . على كل حال فإن هذه الزوابع والسحب قد زادت الشعب ايمانًا بنفسه وبمستقبله وجعلته يستيقظ في غير تهور ويفتح عينيه على صباح جديد .

يقول الاستاذ مالك بن نبي الذي عاصر هذه الفترة في كتابه (شروط النهضة) « وخلال العصر الذهبي الذي بدأ عام 1925 واستمر حتى زوال المؤتمر (أي المؤتمر الاسلامي الجزائري 1936) الذي مات في مهده ، كنا نشعر بالنهضة ولم يكن زادنا في مبدإ رحلتنا سوى كلمات من الفصحى وبعض آيات من القرآن ، وهكذا ابتدأت على أثر هذه النهضة المدارس الأولى تشيد بسيطة متواضعة كتلك المدارس الأولى التي افتتحت في الغرب في عهد شارلمان والتي كانت أوصالا للمدنية الغربية » . ويقول عن الأدب في نفس الفترة « ولم يختلف الأدب الجزائري عن ذلك ، فقد بدأ يصور تقدم البلاد في قصائد جدد فيها نشاطه بعد ركود طويل . كانت القصائد تلك تغني ربيع النهضة » .

لقد اكتسب الشعر من هذا الجو طاقة جديدة وذخيرة تعبيرية لم يجدها منذ حوالي قرن . ولذلك راح يدق الأجراس ويطلق الصفارات متمشيًا مع التيار الوطني المتدفق من نفسية الشعب . وهو إذ يفعل ذلك لا يزج بنفسه في مفهوم خاص أو يتناول قضية ما من جوانبها المختلفة ولكنه يظل صورة للقلق والغيوم التي كانت تتلبد في سماء الجزائر بين الآونة والأخرى .

والحقيقة ان شعر الاجراس كان سلبيًا إلى حد كبير ، ولم يتغن بأية نهضة على خلاف ما يرى الأستاذ بن نبي ، لأن هذا الشعر لم يجد أهدافًا وركائز واضحة لتلك النهضة ، وإنما وجد شعبًا قلقًا قد فتح عينيه على أشياء كثيرة لم يدرك بعد حقائقها ، فكان شعر الأجراس صورة لهذه الحيرة .

إقرأ مثلا هذه اللهجة الحائرة بين الواقع الشعبي وبين الأمل الذي يضطرب في نفس الشعر نحو آفاق مجهولة . يقول محمد العيد ابرز شعراء هذه الفترة يخاطب الشعب الجزائري :

أيها الشعب فيم توسع قهرًا ليت شعري لأي أمر تقاد

ليت شعري متى تصير عنيدًا ولأهليك بالنفوس اعتداد

ليت شعري متى تمد لك الأيدي وتغرى بحبك الاكباد

ان خير البلاد في وسع أهليها إذا أبدأوا بها وأعادوا

ولعلك تلاحظ في غير عناء مقدار الحيرة التي تملكت الشاعر والتي تتمثل في تكرار التساؤل (متى ، وليت شعري) لا سيما حين تعرف ان هذا الشعر كان قد قيل عام 1935 ، أي قبل انعقاد المؤتمر بنحو سنة .

ونفس الشاعر يقول في قصيدة أخرى تقترن فيها الحيرة باليأس القاتم :

نح علـــى أمـــة حظهـــا تاعس
أمـــة مجدهـــا دارج دارس
أمـــة ما لهـــا قائـــد سائس
قد نبـا سيفهـا وكبـا الفـارس
خصمهـــا دائب فوقهـــا دائس
وبنوهـــــا أخ لأخ باخس

ومهما يكن من شيء فان الشعر قد تجاوب مع الشعب في هذه المرحلة الخطيرة وصور حياته كما هي دون تزويق أو اطراء. ومن شعراء هذه المرحلة محمد العيد ، الأمين العموري ، جلول البدوي، ومفدي زكريا .

شعر البناء : 1936 — 1945 :

آلت امارة الشعر إلى محمد العيد فأخذها عن جدارة . غير أن الاصوات الأخرى لم تسكت ولكن طال عليها الطريق ونفد عندها الزاد فاستحبت الراحة على العناء ، وخلدت إلى نوع من الركود يشبه الفناء ، فانزوى البعض يبحث عن ذاته ، وتساءل الآخرون عن مجهوداتهم التي يرونها تذهب هباء ، ويئس قسم آخر من الشعر كطريق إلى التعبير الواضح فعادوا إلى النثر يقتدحون زناده وينحتون من صخره . وهكذا لم يبق من الأصوات الأخرى غير صوت أحمد سحنون ومفدي زكريا .

ومحمد العيد إذ تسلم هذه الامارة لم يتخذها طريقًا إلى الشهرة والتهريج ، ولم يحد بها عن الطريق الذي عبده أسلافه ووضعوا فيه بعض القناديل ، بل شق نفس الطريق وخاض عين الوحل ، ولكنه استطاع ، وبقدرة عجيبة ، أن يضيف مصابيح أخرى باهرة الضياء ، ويعبّد كثيرًا من المسافات التي كانت ما تزال غير

سوية (1) . وقد ساعده على مهمته هذه تطور المفاهيم القومية بحيث انتفع بتجارب الماضي ووعي الحاضر وآمال المستقبل . كما أعانه ظهور المدارس الأدبية التي دخلت الشعر العربي عن طريق أدباء المهجر وبعض شعراء المشرق الذين وصلوا إلى الجزائر عن طريق فرنسا .

على أن هناك قضية يجب أن لا تغيب عن الأذهان . ذلك أن محمد العيد لم يخلق في هذه الآونة بل كان موجودًا وشاعرا قبل عام 1925 (ولد سنة 1904) ولكنه قد بلغ في هذه المرحلة درجة من النضج والمقدرة على تمثيل احساسات الشعب ووعي الأهداف الوطنية ما جعله بحق شاعر الشعب .

إن الجزائر قد عرفت في هذه المرحلة أكبر الهزات الوطنية والعالمية ، وكانت مسرحًا لانفعالات نفسية متعددة . فقد انعقد فيها لأول مرة مؤتمر شعبي حضره آلاف المواطنين واشترك فيه عدد من الهيئات الوطنية وتحدث فيه الخطباء عن تاريخ الجزائر وحاضرها ووصفوا آلام الشعب وآماله ، ودعو الى مستقبل أفضل يرفع عن الشعب كابوسًا طالما حجب النور ، ونادوا (بالكيان الجزائري) المتميز باللغة والدين والوطن . ثم تلوا على مسامع الجماهير المطالب التي أقرتها اللجنة المختصة فهتف لها الحاضرون وأيدوها . وأثناء هذا المؤتمر تكلم الشعراء فهيجوا الحماس وحركوا كوامن النفوس وتغنوا بالوحدة والنضال في سبيل الوطن .

وبالرغم من فشل هذا المؤتمر من الناحية السياسية ، فانه كان نقطة انطلاق كبيرة في تاريخ الكفاح الجزائري ، ذلك انه قد فتح أعين الشعب على آفاق رحبة لم تكن معروفة من قبل ، نتيجة لما أثاره من قضايا وما صقله من أفكار وما بعثه من حماس . بالاضافة إلى أن هذا المؤتمر قد حفر هوة عميقة بين الاحتلال وبين الشعب . ففي الوقت الذي كان فيه دعاة الاندماج والذوبان يعملون على تنفيذ خططهم بالحيلة والدس والاغراء كان المؤتمرون يحدثون الشعب عن (الذاتية الجزائرية) والتمايز بينها وبين الذاتية الفرنسية .

ولم تكن هذه الهزات الوطنية متمثلة في عقد المؤتمر المذكور فحسب بل

---

(1) انظر بهذا الصدد كتابنا : (شاعر الجزائر محمد العيد)، الطبعة الثالثة 1984.

عاشت الجزائر أيضًا الحرب العالمية الثانية التي اشترك فيها عدد كبير من الجزائريين والتي خلفت هي الاخرى انبثاقات شعبية وتطلعات نحو غد جديد . كما كان فشل المؤتمر السابق مبعث صراع فكري . فقد كثر الهمس داخل الاحزاب حول المستقبل وآشتد التوتر بين الهيئات حول الطرق التي ينبغي اتباعها للوصول إلى الأهداف المنشودة . وكان ذلك جميعًا قد ساعد الشعب على أن يصبح حكما ، وأن يتدخل فيما كان يعمل باسمه ، وبالتالي أصبح الشعب قادرًا على الاختيار والتوجيه .

وفي هذه المرحلة الحرجة من تاريخ الجزائر أخذ الشعر على عاتقه الدعوة إلى الوحدة الشعبية والوطنية النقية ، وإلى التحرر من الماضي البغيض ونسيان الذات في سبيل المثل العليا . كما أخذ شعر البناء يواجه العدو بشيء من الصراحة والتسديد ، ويبشر بما في الجزائر من طاقات مذخورة وما فيها من خصائص تميزها وتجعل منها شخصية نموذجية . ومن أجل هذه النظرة إلى القضايا الوطنية أسمينا هذا الشعر شعر البناء . يقول محمد العيد وهو يعرض بالخونة والرجعيين :

قف حيث شعبك مهما كان موقفه أو لا فانك عضو منه منحسم
تقول أضحى شتيت الرأي منقسمًا وأنت عنه شتيت الرأي منقسم
أعدى عدى القوم من يعزى لهم نسبا ويسمع القدح فيهم وهو يبتسم

ويقول عن الأنانية العفنة التي ابتلي بها بعض الزعماء :

لا أرى الالقــاب إلا بروقــــا واجفات الطرف وهو كليــــل

ولعل المثال التالي خير دليل على ما وصل إليه الشعور الوطني في هذا الشعر الباني . فقد تحدث فيه الشاعر عن الحياة الصاخبة وأمر الشعب بخوضها عراكا ومغالبة ، وتغنى بالجزائر كوطن مقدس ورضي بالبقاء في هذا الوطن مهما كان جحيما ، بل سمى هذا الجحيم ربيعًا منعشًا ما دام الشاعر في حمى الوطن . كما تحدث محمد العيد عن الوحدة الشعبية .

هلم نعارك فالحياة معارك هلم نقاحم فالحياة مقاحم
وهبتك روحي يا جزائر فأمري كما شئت إني خاضع لك خادم

جمَالكِ ربيع لي وإن كان جاحما		علي وهل يصلي خديك جاحم
وقرباك هم قرباي لست مباليًا		أعاريب هم في جنسهم أم أعاجم
فخذ من دمي يا آبن الجزائر إنني		أخ لك في كل الحظوظ مقاسم

شعر الهدف : 1945 ـــ 1954 :

بعد مجزرة 8 مايو 1945 التي ذهب ضحيتها أكثر من أربعين ألف جزائري حين كان الحلفاء يحتفلون بانتصارهم ، اكتسب الشعب الجزائري تجربة جديدة نبهته إلى الحقيقة المرة وهي أنه لا أمل في التحرر من غير سلاح . وهذه المجزرة وإن خلفت جراحًا وآلامًا كثيرة ، جعلت الشعب ييأس من المحاولة السلبية ويكتشف نفسه التي كانت تائهة في ضباب السنين . وبفضل تلك المأساة ظهرت في أفق الجزائر ألحان الحرية والضحايا والاستقلال والعلم الرفراف ، إلى آخر هذه الرموز المقدسة لدى الشعب ، التي لم تكن لتظهر لولا التطور الكفاحي الذي كان يدنو من الهدف . ومن ظهور تلك الرموز ظهر عدد آخر من الشعراء كان في طليعتهم الربيع بوشامة ، وعبد الكريم العقون ، وأحمد الغوالمي ، وموسى الاحمدي ، وحسن حموتن ، والاخضر السائحي ، ورغم ذلك فان القيادة الشعرية كانت مازالت في يد محمد العيد ، وسحنون ، وزكريا .

كما تنوعت موضوعات الشعر خلال هذه الفترة فكان من بينها قضية فلسطين ، وأحداث الشرق العربي وغيرها من القضايا الاجتماعية المعاصرة . ومع التطور في الموضوعات فان الشعر لم ينس قط رسالته التعليمية والاصلاحية سيما عند محمد العيد وسحنون والاحمدي . ففي عام 1951 نشر الأول قصيدة طويلة عنوانها (إلى العلم) يقول فيها :

أراك بلا جدوى تضج من الظلم		إلى العلم إن رمت النجاة الى العلم

وهو في هذا يعود بفكره الى ما قبل 1925 حيث يقول الشاعر اللقاني :

بني وطني هل من نزوع لأجداد		فقد ركبوا للعلم صهوة منطاد

أو حيث يقول الشاعر السعيد الزاهري :

توفر حظ الناس في العلم والهدى		ومازال منقوصًا نصيب الجزائر

ولعلنا الآن نستطيع ان نذكر بعض النماذج التي تلقي الضوء على ما قصدنا إليه من (شعر الهدف) . يقول أحمد سحنون يخاطب المعلم :

هات من نسل الحمى خير عتاد   وادخرهم لغد جند جهاد
هات نشئًا صالحًا يبني العلا   ويفك الضاد من أسر الأعادي
ان في يمناك شعبًا كاملا   يتنزى بين ظلم واضطهاد
لم يزل في القيد منهوك القوى   منذ ألقى للأعادي بالقياد

وفي قصيدة أخرى يخاطب التلميذ يقول الشاعر نفسه :

شعبك الموثوق لم يبق له   من عتاد فلتكن خير عتاد
لجّ الاستعمار في طغيانه   كل يوم منه ألوان اضطهاد
فليكن حاديك تحرير الحمى   إن تحرير الحمى للحرّ حاد

ولعلك تلاحظ ان بعض الكلمات والتعابير لها وقع خاص في هذه الأبيات مثل تحرير الحمى ، جند جهاد ، أسر الاعادي ، لجّ الاستعمار في طغيانه ، يتنزى بين ظلم واضطهاد ، .. الخ .

ويقول عبد الكريم العقون في لهجة أكثر وضوحًا وأيسر لفظًا :

بني وطني أعيدوا مجد قوم   أقاموه على أقوى عماد
وأدوا ما عليكم من حقوق   لشعبكم وذودوا كل عاد
وفكوا قيده لا تتركوه   يعاني كل ظلم واضطهاد

والفرق بين هذا النموذج والذي قبله أنه بينما استعمل الأول ألفاظًا تقريرية هادئة استعمل الثاني ألفاظًا آمرة تارة وناهية تارة أخرى فيها حرارة التوجيه وصدق الشعور بالموضوع . انظر مثلًا هذه الكلمات ذات الرنين الخاص : بني وطني ، أعيدوا ، أدوا ، ذودوا ، فكوا ، لا تتركوه ... الخ . فكل هذه توحي لأول وهلة أن الشاعر كان يخاطب الجماهير في مظاهرة صاخبة .

أما النموذج الذي نقدمه لمحمد العيد ، فهو يدل على وضوح الهدف الذي بدأ الشعب يسعى له منذ الاحتلال . كما أنه يدل على أن الشعر قد بلغ من الحماس

أحيانًا ما يجعله يلقي بهدوء الاصلاح جانبًا ويدخل في المعركة السياسية بوجه سافر . يقول محمد العيد من قصيدة نشرها في جريدة (المنار) سنة 1950 :

حثوا العزائم واصدقوا الآمالا ... ان الزمان يسجل الاعمالا
يا قوم هبوا لاغتنام حياتكم ... فالعمر ساعات تمر عجالا
الاسر طال بكم فطال عناؤكم ... فكوا القيود وحطموا الأغلالا
والشعب ضج من المظالم فانشدوا ... حرية تحميه واستقـــلالا
لا أمن إلا في ظلال مرفرف ... حر لنا عال ينير هلالا
من فوق جند بالعتيد من القوى ... يلقي العدو ويصمد استبسالا
وإذا أراد الشعب نال مراده ... ولو أنه كالنجم عز منالا

ولعل محمد العيد أول من صرح بالاستقلال والحرية والعلم والجيش الوطني من بين أخوانه الشعراء . ذلك أن الشعراء الجزائريين ـــ وهو منهم ـــ كانوا يختبئون وراء الكلمات ولا يصرحون بما يودون . ولذلك كثرت في شعرهم العبارات المحتملة والمبهمة . من ذلك اطلاق الاسر على الاستعمار والحمى على الوطن والحمراء على الحرية والمجد على الاستقلال .

وهناك نموذج آخر من قصيدة أنشدها محمد العيد قبل الثورة بنحو ثلاثة شهور فقط في جماهير غفيرة يوم الاحتفال بافتتاح مدرسة مدينة باتنة . ومن حسن الحظ اني حضرت شخصيًا ذلك الاحتفال وشاهدت بعيني تجاوب الجمهور مع الشاعر حين كان يلقي هذا الشعر :

وما التسجيل للآثار إلا ... ببذل المال أو بذل الضحايا
حذار من الشقاق فان أقمتم ... عليه عصاكم انفلقت شظايا
ولي وطن حبيب لي خصيب ... وقفت على محاسنه هوايا
وكنت له من الاحرار عبدا ... له روحي وما ملكت يدايا
إذا آنست من بلواه نارا ... فإني قد وجدت بها هدايا

شعر الثورة 1954 :

حين اشتعلت الثورة اذكت العواطف وهزت المشاعر الاقلام التي كانت من

قبل مكبوتة ، وفتحت أمام الشعر آفاقًا ما كان يستطيع أن يحلم بها لولا الدم والنار والحديد . وقد تفجرت ، نتيجة لذلك ، عواطف الشعراء ، بشعر ثوري عارم يسجل انتصارات الثورة ويبشر بالاستقلال والغد الحر ، ويتغنى بالوطن والحرية ، ويشارك المحزونين والمتألمين ، ويضمد الجراح ويكفكف الدموع ، ويخلد الشهداء ، والأبطال والوقائع . هذه الطائفة من الشعراء كانت وليدة الثورة شعريًا ، ولكن لم تكن وليدتها زمنيًا ، فقد كان بعض هؤلاء الشعراء موجودين قبل الثورة كما سبقت الاشارة .

أما شعر هذه الفترة فيتميز بالروح الوطنية المشتعلة سواء في تناوله لمواضيع ثورية مباشرة أو مستوحاة من الواقع العربي . كما يتميز بالحماس الطائر والعاطفة المجنحة ، ويفتقر إلى الخيال الموحي والتأمل الخلاق . ومن شعراء هذه الفترة نذكر أحمد الباتني ، ومحمد صالح باويه ، وصالح الخرفي ، وأبو القاسم خمار ، وعبد السلام حبيب ، وعبد الرحمن الزناقي . ونعتقد أن شيوخ الشعر لديهم انتاج كبير يمثل روح هذه الفترة المجيدة من كفاح الجزائر ولكن لن نتعرض لشعرهم هنا لأن هدفنا هو التأريخ للشعر الحديث متتبعين مراحله وأصوله .

وفيما يلي بعض النماذج من هذا الشعر الحديث . يقول الشاعر عبد السلام حبيب من قصيدة له بعنوان (مصرع خائن) يتحدث فيها عن البطل محمد بن صادق الذي اغتال الخائن علي شكال على مرأى من الآلاف في باريس ويتحدث فيها عن الروح الفدائية ، وعن الذعر الذي أصاب الفرنسيين إثر الواقعة :

خذها ، ودمدم من مسدسه رصاص
خذها ، فقد حان القصاص
الويل لك
يا خائن الشعب الجريح
لن أستريح
حتى تموت سأقتلك
باسم الوطن
باسم الجراح الراعفه

باسم الجموع الزاحفه
باسم الجزائر والنضال
خذها رصاصة ثائر
حر الضمير جزائري ...

أما الشاعر محمد صالح باويه فيقول في قصيدته (الثائر) :

يا رفاقي في الذرى ، في السجن ، في القبر ، وفي آلام جوعي
قهقه القيد برجلي يا رفاقي حدقوا فالثأر يجتر ضلوعي
يا جنون الثورة الحمراء يجتاح كياني ومغارات ربوعي
أقسمت أمي بقيدي ، بجروحي ، سوف لا تمسح من عيني دموعي
أقسمت أن تمسح الرشاش والمدفع والجرح بمنديل دموعي
أقسمت أن تغسل الجرح وتغدو شعلة تضرم أحقاد الجموع

وفي ملحمة طويلة يتحدث الشاعر أبو القاسم خمار عن الشعب الجزائري مستعرضًا كفاح المغرب العربي . عنوان هذا الشعر (ظلال وأصداء) :

ثار في ثورة إذا قيس بركـان	بهـزات نارهـــا كان يسرا
ثورة تحمـل الابـادة للبـــؤس	وللعـــدل والسيـــادة بشرى

وفي قصيدة (سلاحنا وسلاحهم) يتحدث الشاعر صالح الخرفي عن فرنسا ونضال الجزائر :

ملأت الأرض والأجواء حديـدا	فكان العزم أقـوى من حديـد
فلسنا في الوغى جددًا فتثني	عزائمنـــا أساطيـــل الجنــود
ولا عشاق دينــــار فتلـــوى	أعنتنـــا بوارق من وعـــــود
ولكـن عيشة الأحـرار نبغـــي	ودون بلوغهـا نيـل الخلــود
زحفنـا كالأتـي فكـنت سدا	سلي خبر الأتـي مع السـدود

أما الشاعر عبد الرحمن الزناقي فيقول عن الثورة :

في كل يوم ثورة للثـــــار	في أرضنا كالرعـد كالاعصار

في كل يوم ثورة وقـــادة ترمي الطغـاة بأسهـم من نار

ويقول أحدهم من قصيدة يخاطب فيها الجزائر :

يا أرضي المنطلقـــه
نسرًا يحضن حريـــه
شعلـــة نور منبثقـــه
ما زالت في الكـأس بقيـه
شربوهـا موتًـا أو خيبـه
وسنملأهـا حريـه
يا أرضي المنطلقـــه
لا ألمًـا ، لا شكـوى
أمضي في الأفـق الأرحب
أفـق الثـورة
آسي الجرحـة بالجرحـة
وأطيري المـوكب بالفرحـة
لا ألمًـا ، لا شكـوى
يا أرضي المنطلقـــة !

موضوعات الشعر الحديث وخصائصه :

مما سبق يفهم أن موضوعات الشعر الجزائري الحديث كانت في الغالب اصلاحية ووطنية . والحقيقة أنه قد تناول أيضًا الرثاء والمدح ، والوصف والتهاني ، والعتاب والحكم . كما تغلب على هذا الشعر ظاهرة المناسبة ، أي أنه كان بعيـدا عن الوحي الذاتي إلا في القليل النادر ، ويكاد يخلو من الغزل . وقد أشار الشاعر اللقاني إلى هذه الظاهرة فقال :

ألا فدع التغـزل في غوان فتـلك طريقـة المستهترينـا
فمـن صوت البـلاد لنا نداء يكـاد المـرء يسمعـه أنينـا

كذلك يمتاز هذا الشعر بتفخيم المطالع وتصريعها واختيار أبعد الألفاظ وأوقعها . من ذلك مثلًا المطالع التالية :

(باتنـة) رعـد البشائـر لعلعـا   فاطرب (اوراسا) بها و(الشلعلعا)
يا وادي (السّان) أوردنا باحسان   ولا تمتنا صدى يا وادي (السان)
عظم المصاب وجلت الدهماء   وتـــوالت البـــأساء والضراء

ومن خصائصه استعمال الدعاء والترحم والضراعة والأمر والنهي . ومن ذلك مثلًا البيتان التاليان :

فالحـــظ الله سيرنـــا بوفـــاء   وأنِرْ نهجنـا وبـارك خطانـــا
لئـن سجنـوا الشعب الكريـم بشخصكـم
فقـد أطلقـوه اليـوم ، فليـــبشر القطـــر

كما يمتاز بالاطالة وتناول أغراض متعددة في القصيدة الواحدة . والشاعر عادة يعنون شعره ببيت كامل أو شطر وذلك لتعدد الموضوعات . وهناك نماذج كثيرة على هذا .

ومن ذلك انه شعر محلي قليل التعرض للقضايا العامة . ولذلك قلنا عنه إنه قد صدر عن حياة الجزائر وصورها تصويرًا واقعيًا صادقًا . فقد تحدث عن تأخرها العلمي والاجتماعي ، ووصف جمالها الطبيعي ومنزلتها التاريخية وتحدث عن نهضتها وحركاتها ورجالها . فاذا ما تناول قضية عامة فان ذلك بوحي من الداخل ، مثل استقلال بعض الشعوب والحروب والموت والحياة ، الخ . كما أن هذا الشعر قد أتجه إلى الابهام والتلغيز ووضع كلمة مكان أخرى خوفًا أو تقية أو حبًا في التشويق والاغراء . وشعر محمد العيد مليء بهذه الألغاز والرموز .

ولعل أكثر ما يميز الشعر الجزائري جزالة اللفظ وحبك العبارة والمحافظة على القوالب العتيقة وفقدان الروح الفنية التجديدية ، وعدم الوحدة الموضوعية والعضوية في القصيدة والكلف بالحكمة والتقرير والتعميم في الأحكام والاحتواء على العبارات الدينية والتاريخية على أساس التضمين والاقتباس . كذلك يتميز بطول النفس والبساطة والتمهيد بالمقدمات الطويلة .

وقد جمد الشعراء فلم يحاولوا الثورة على الطريقة التقليدية ولم يحاولوا التخفيف من طابع القديم ، فاذا ما حاول بعضهم ، مثل الطاهر البوشوشي وجلول البدوي والأخضر السائحي ، فان ذلك لا يعدو تصفيف الكلمات وترقيق العبارة . أما ما يخص الأغراض البلاغية (كالطباق ، والاقتباس ، والتضمين) وما يتعلق بالقافية والوزن الغاء وتصرفًا ، فهذا ما لم يفعل الشعراء ازاءه شيئًا . اقرأ مثلًا هذا لمحمد العيد :

النيابات كلها نائبات والقيادات كلها أقياد
إن للعرب في الحضارة قدمًا قدمًا للورى عليها اعتماد
نتواصى بالحق والصبر فيه والتواصي تضامن وجهاد

وآقرأ كذلك هذا البيت لعبد الكريم العقون :

كذا العرب جسم واحد أن يذق أذى
تداعت له الأعضاء بالسهر والضر

أو هذا لأحمد سحنون :

وما الشعر إلا ثورة غير أنها تصول بلا كف وتسعى بلا رجل

التجديد :

كنت أتابع الشعر الجزائري منذ سنة 1947 باحثًا فيه عن نفحات جديدة وتشكيلات تواكب الذوق الحديث ، ولكني لم أجد سوى ضم يركع أمامه كل الشعراء بنغم واحد وصلاة واحدة . ومع ذلك فقد بدأت أول مرة أنظم الشعر بالطريقة التقليدية ، أي كنت أعبد ذات الصنم وأصلي في نفس المحراب ، ولكني كنت شغوفًا بالموسيقى الداخلية في القصيدة ، واستخدام الصورة في البناء وقد نشرت أول شعر جزائري في الهجر واليأس بعد صدمة قلبية ، منه الأبيات التالية (البصائر — 192 سنة 1952) :

رفت به الاقدار في آفاقها حينًا ، وأصمت طيرها بسهام
سقط المهيض وحطمت أوتاره متألمًا ظامي العواطف دامي
أسقيه من دمع الصبابة داهقًا من وحشتي وكآبتي وظلامي

أما عن الغزل فقد نشرت قصيدة بعنوان « الجمال الحالم » (الاسبوع 315 سنة 1953) منها هذه الأبيات :

أضفى الوجود مداك في الألوان — وجلاك معرض للخلود الهاني
تجثو الحقائق من سموك ركعًا — وتفيض منك جداول الايمان
ملك تندى النور في بسماته — وسرى كسحر الفن في الفنان

والحق أني غير راض عن هذا الشعر ، ولكني جئت به لكي يتاح للدارس ملاحظة التطورات والمراحل التاريخية والانفعالات المباشرة وغير المباشرة في الشعر الجزائري ، ولا شك أن القارىء يلاحظ في غير عناء الروح التي تفرق بين ما سبق من نماذج وبين النموذجين الأخيرين .

غير أن آتصالي بالانتاج العربي القادم من الشرق — ولا سيما لبنان — واطلاعي على المذاهب الأدبية والمدارس الفكرية والنظريات النقدية ، حملني على تغيير اتجاهي ومحاولة التخلص من الطريقة التقليدية في الشعر . وتمشيًا مع هذا الخط نشرت بعض القصائد التي كانت رتيبة التفاعيل ولكنها حرة القوافي (مثل احتراق ، أطياف ، خميلة وربيع) ، ثم لم ألبث أن تحررت من التفاعيل أيضًا . وقد نشرت أول قصيدة متحررة في الشعر الجزائري (البصائر 311 سنة 1955) بعنوان « طريقي » منها هذا المقطع :

سوف تدري راهبات واد عبقر
كيف عانقت شعاع المجد أحمر
وسكبت الخمر بين العالمين
خمر حب وانطلاق ويقين
ومسحت أعين الفجر الوضيه
وشدوت لنسور الوطنية
إن هذا هو ديني
فآتبعوني أو دعوني

في مروقي
فقد إخترت طريقي
يا رفيقي !

ثقافة الشعر :

هناك نوعان من الثقافة في الشعر الجزائري : ثقافة محلية وأخرى خارجية . فالأولى تعني جميع المصببات الروحية والمادية التي أثرت ولونت هذا الشعر . مثلا هناك الأسرة والمدرسة والمجتمع والمسجد والطبيعة والأفكار الحزبية ومبادىء الاصلاح . أما الثقافة الخارجية فتعني النظريات والمذاهب الأدبية وغيرها التي دخلت الجزائر عن طريق الكتاب والرحلات والاذاعة والصحافة سواء كانت هذه الثقافة عربية أو غيرها .

والشعر الجزائري كان قليل التأثر بالمذاهب الأدبية الصرفة ، ميالًا إلى الاعتدال والحذر ، في اعتناق كل شيء غير ديني وغير اصلاحي ، ولذلك لم تنجح الرومانتيكية في الجزائر بالرغم من وجودها في الشعر الفرنسي وفي شعر الشابي في تونس . وليس معنى هذا أن الرومانتيكية لم تدخل الجزائر على الاطلاق ، ولكن معناه أن الذين أرادوا الانتفاع بها مثل الطاهر البوشوشي وجلول البدوي ، لم يصلوا إلى شيء لأن الظروف الاجتماعية وقفت حائلا . ويبدو أن محمد العيد بالخصوص قد تأثر بجبران وفلسفته إلى حد كبير سيما في قصائده التالية : (هيجت وجدي ، يا ليل ، يا قلب ، وليت نحوك وجهي) (1).

أما المدرسة الخارجية التي تأثر بها الشعر الجزائري ، فهي مدرسة شوقي وحافظ والرصافي ، وهي مدرسة زعماء الشعر الاصلاحي — إن جاز التعبير — أو التي يسميها العقاد المدرسة الوسطى . فهؤلاء الشعراء ساروا مع النهضة العربية الصاعدة ، وعبّروا عن أزمات ويقظة الشعب العربي ، واتخذوا من الواقع العربي — الاسلامي موضوعات خصبة . ومن هنا نستطيع القول بأن هذه المدرسة الشرقية قد انتقلت إلى الجزائر مع فارق واحد ، هو أن شعراء الجزائر قد ألبسوها ثوبًا محليًا وصبغوها بألوان بلادهم . ولعل محمد العيد ، وأحمد سحنون ، ومفدي زكريا ، ومحمد اللقاني ، والغزالي ، وأمين العمودي ، وسعيد الزاهري ، والهادي السنوسي أحسن من يمثل هذه المدرسة في الجزائر .

إن الفترة التي عاشتها الجزائر منذ أوائل القرن العشرين حتى الحرب العالمية

---

(1) نذكر هنا بالدراسة التي نشرها عبد الله ركيبي عن الشاعر جلواح. (انظر الشعب الاسبوعي) عدد 20، الحلقة الاولى 22 نوفمبر 1975 والأخيرة في عدد 35، 13 مارس 1976 .

الثانية هي تقريبًا نفس الفترة التي عاشها الشرق إبان ظهور تلك المدرسة الأدبية . ومن هنا نجحت في الجزائر كما نجحت في الشرق ، لأن الأوضاع متشابهة والأهداف تكاد تكون واحدة . ولعل القارىء قد لاحظ مما سبق آثار تلك المدرسة في الشعر الجزائري . وسنكتفي هنا بنموذج واحد للشاعر اللقاني وهو جدير بمقارنته بقصيدة حافظ إبراهيم على لسان اللغة العربية.يقول اللقاني عن اللغة العربية أيضا :

يا أمة ضيعت مجدًا لها سلفا	طال النداء بنا لو كان يجدينا
ها هي أم اللغى تنعي لمصرعها	ها هي ألفاظها تبكي وتبكينا
خلطتموها بألفاظ مشوهة	ولم تقيموا لها يومًا موازينا
صارت شبيهة أثواب مرقعة	تضم من خرق طمر ملايينا

ومما تجدر ملاحظته أنه بينما تخلفت المدرسة الوسطى في المشرق العربي ، فانها في الجزائر ما تزال شائعة ومسيطرة ، وما يزال لها أنصارها الذين يرفضون كل تطوير في القوالب أو الأساليب الشعرية . وهم لا يكتفون بذلك بل يقفون في وجه كل من يحاول الخلاص من تلك القيود .

أما الثقافة المحلية ، فتتمثل في شعر جلول البدوي ، وأبو اليقظان ، وعبد الكريم العقون ، والأخضر السائحي ، والطيب العقبي ، ومحمد العيد أيضًا . فمن هؤلاء من اتخذ الطبيعة الجزائرية مادة لشعره ومنهم من استلهم موضوعاته من الواقع الجزائري القاسي ، ولكن ليس بينهم من تخصص في ناحية معينة . ومن الجدير بالذكر أن الثقافة الأجنبية قليلة في الشعر الجزائري ، ذلك أن معظم الشعراء السابقين لا يتقنون غير العربية .

شخصية البطل في الأدب الجزائري

هل صحيح أن الاستعمار والحرب والظروف تقتل الأدب والأدباء * ؟ وهل يصح ــ بناء على ذلك ــ أن ندعي بأن الجزائر ، البلد العربي العريق ، خالية من الأدب والأدباء لأنها عانت وما تزال تعاني من الاستعمار والحرب والظروف ؟ لقد اعترف غير واحد بذلك في مناسبات شتى أهمها المناسبات الثقافية ، فكلما وقف جزائري في مؤتمر جامع أو ندوة عامة تأوّه وصبّ اللعنات على الاستعمار والحرب ، والظروف التي عاقت ــ في نظره ــ مواهب الجزائريين عن الاخصاب .

هذا هو الشريط الذي يعرض على النظارة كلما جمعهم مكان للتداول في شأن الأدب والثقافة ، منذ أكثر من أربع سنوات ، أي منذ قدّر للجزائر أن تحطم قيودها وتخرج من عزلتها لتوحد كلمة العرب ازاء مفهوم الكفاح المنتج . بل لعل هذا الشريط كان يدور منذ أكثر من سنوات الكفاح الأربع . فقد كانت هناك مناقشات حادة في صحف الجزائر وفي مجالسها الأدبية حول الأسباب التي تحقق رسالة الأدب ووسائل نشر الكتاب والعناية بالانتاج وغير ذلك من المشاكل التي تواجهها كل بيئة ناهضة تحس بتبعات النهضة . وقد كانت المناقشات تنتهي عادة بنفس الشريط : الاستعمار والحرب والظروف هي التي قتلت الأدب والأدباء في الجزائر .

* بحث نشر في مجلة « الآداب » اللبنانية عدد 4 ، 1959 .

الظاهر أن الاستعمار لا يقتل الأدب ولكن يلونه بالوان مختلفة فيخلق مثلًا أدب الرمز والأدب المنحرف والشاذ ، ويخلق الصراع بين الأدب المتحرر والرجعي ، والظروف لا تقتل الأدب ولكنها تكيفه فتجعل منه الأدب الذاتي أو الموضوعي والأدب الهادف التعبيري أو النموذجي أو الحيادي الواقعي . أما الحرب فهي كفيلة بتوسيع مجالات الأدب أو تحديدها . إنها تعطي للاديب فرصة الانطلاق وتحطيم المفاهيم السائدة وتسلحه بطاقات جديدة لا يمكن أن يظفر بها أثناء الركود وسيادة العادات والتقاليد الرجعية . فالمدارس الأدبية الكبرى من رومانتيكية وواقعية ، والتيارات الاجتماعية من ارستقراطية وبورجوازية واشتراكية مدينة جميعًا بصورة أو بأخرى في تلوينها وتكييفها إلى الاستعمار (في معناه الواسع) والحرب والظروف . ان طاغور وماركس وروسو وأدباء المهجر وشيكسبير وشوقي ومحمد العيد وابن باديس وغيرهم خير الأمثلة على تدخل تلك العوامل في طبعهم . وعلى هذا الأساس قام الأدب الجزائري المعاصر . لقد لونه الاستعمار بلون خاص وطبعته الحرب بطابع مميز وصبغته الظروف بصبغة معينة .

وبذلك يتضح أن ما يزعمه بعضهم من موت الأدب والأدباء الجزائريين غير صحيح ، وأن الأولى بنا أن نفهم ذلك الزعم على انه عجز عن هضم الواقع واستحضار التاريخ وتفهم الأسباب الحقيقية لحركة الأدب في الجزائر . ومن الخير أن ندرس هذا الأدب ليتبين صدق ما نقول . ولنبدأ الآن من زاوية واحدة من زواياه المختلفة وهي البطولة . فكيف عالج الأدب الجزائري هذه الظاهرة ، وإلى أي مدى احتفى الأدباء الجزائريون بهذا اللون شعرًا ونثرًا ؟ .

1) في الرواية :

ان النثر أشد التصاقًا بالأرض من الشعر . وقد تجلت هذه الحقيقة في النثر الجزائري بعامة ، والرواية بخاصة . ذلك أن ظروف الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى قد ساعدت على ظهور المذهب الواقعي الذي وجد فيه الكتّاب على اختلاف ميولهم وثقافاتهم مجالًا للتعبير عن واقع البلاد بما فيه من متناقضات وعزلة وحرمان ، وما يكثر فيه من دعاوي الحرية والوطنية والديموقراطية والرخاء في نفس الوقت الذي كان فيه الشعب يعاني من الشقاء المزمن والقيود الثقيلة . ولكن

الواقعية لم تسد لما تحمله من تشاؤم ونظرات سوداء وما تزرعه من بذور الحقد والطبقية بل لما فيها من وصف مادي للحياة الاجتماعية المخيفة التي يحياها عشرة ملايين من السكان ، ولما فيها من امكانيات التعبير الصريح القاسي عن تلك الحياة وأهلها . ولذلك لم يعالج النثر الجزائري في تلك الفترة إلّا الموضوعات المادية الصميمة أو الحيوية الصارخة كالفقر والتعليم والحرية والهجرة ، وغير ذلك من الموضوعات التي كان الشعب يشكو منها تحت الاحتلال الأجنبي .

ومن هنا لا نعجب حين نرى أولئك الأبطال الذين يعالج الكتّاب من خلالهم تلك المشكلات يصوّرون الحياة الاجتماعية ببؤسها وحاجتها وشعورها بالمرارة وثورتها على الظلم والعسف . انهم أبطال واقعيون يعيشون في مستوى الشعب المادي . انهم يشعرون بشعوره ويتفاعلون معه سلبًا وايجابًا . ليسوا خياليين أو مثاليين كما أنهم ليسوا انهزاميّين أو رجعيين . انهم أفراد تتمثل فيهم طبائع البيئة بخيرها وشرها ، بحقدها وتعاونها ، بفشلها وانتصارها ، بارتباطها بالماضي وتطلعها إلى المستقبل . هذا هو البطل كما فهمته الرواية الجزائرية . انه شخص عادي ركز الكاتب فيه وعليه كل مشاعر المواطن ، فليس له مؤهلات خاصة ولا استعدادات خارقة .

فهذا عمر بطل محمد ديب في روايته الكبيرة (البيت الكبيرة) و(الحريق) و(المنسج) تعرفه منذ كان طفلًا يعيش مع أمه في منزل قديم عفن في مدينة تلمسان إلى أن يصبح رجلًا عاملًا في مصنع للنسيج ينتظر مصيره تمامًا كما ينتظره الآلاف من مواطنيه ، وهو المصير الذي تحدد بقيام ثورة 1954 ، وعمر في تنقله من مرحلة البيت إلى المدرسة ثم الريف ثم المصنع لم يسر في غير الطريق الذي رسمه له المؤلف وهو طريق ليس غريبًا على الذين عاشوا أو شاهدوا تلك البيئة اذ ليس في الجزائر مهنة أو وظيفة محددة فلم يبق الا أن يكون مستعدًا للصراع مع الحياة في جميع أشكالها . والبطل عمر في طفولته صورة لآلاف الأطفال الجزائريين في تشردهم وضياعهم . وهو في شبابه صورة أخرى لآلاف العمال الذين يثورون ويشكون وييأسون ويتعرضون لأنواع شتى من المذلة والهوان ، وفيهم من يعيش بلا مستقبل وفي تخاذل ويأس ومن يتطلع الى غد كريم في ثورة وعنف وفي ثقة وإيمان .

وكذلك نجد بطل رواية (العتاريس) لادريس الشرايبي (1) ينزل إلى نفس المستوى الذي يعيشه مواطنوه في باريس ، أولئك الذين يحيون رواسب نفسية ومادية وخلقية اعتنقوها منذ كانوا في الجزائر ونقلوها معهم أو انتقلت اليهم في فرنسا . ان البطل في هذه الرواية أديب فنان له إحساس خاص ومن حقه أن يحيا حياة أرقى من تلك التي انغمس فيها ابناء وطنه ورسبوا فيها إلى القاع ، ومع ذلك تأبى عليه إنسانيته إلا أن ينغمس في نفس الحياة ويغوص إلى نفس القاع . انه يؤاكلهم ويجادلهم ويحترف أعمالهم بل وينزل إلى تفكيرهم . وهكذا لم يبق من فارق بين البطل وبين سائر المواطنين حتى في الاحساس الخاص الذي حاول الشرايبي أن ينقله إلينا على ألسنة وفي أعمال تلك العتاريس الادمية .

وهناك رواية أخرى نحب أن نقف عندها قليلًا ، تلك هي (غادة أم القرى) لأحمد رضا حوحو (1947) وبطلتها زكية فتاة حرمت لذة العلم وممارسة حقوقها الطبيعية كإنسانة من ناحية وامرأة من ناحية أخرى . وفي هذه الرواية الصغيرة يعالج الكاتب مشكلة الحجاب التي شغلت الأذهان والأقلام زمنًا طويلًا ، والتي ما يزال مجتمعنا يعاني منها حتى الآن . وبالرغم من أن حوحو قد كتبها عن اسرة تعرف عليها في الحجاز إلا أن نموذجها وفكرتها في الجزائر إذ لا فرق بين المجتمعين في هذه الناحية . ولعل حوحو لم يستطع أن يخرجها على الناس باسم اسرة جزائرية خوفًا من سلطة المجتمع التي كان لها الحكم الأول والأخير أثناء تلك الفترة . ولذلك اكتفى المؤلف باهدائها إلى « تلك التي تعيش محرومة من نعمة الحب والعلم والحرية ، إلى تلك المخلوقة البائسة المهملة في هذا الوجود . إلى المرأة الجزائرية تعزية وسلوى » . ومع هذا الهروب من المجتمع فلم تسلم الرواية ولا الكاتب من بعض السهام والغمزات . والبطلة زكية في هذه الرواية تمثل جمهرة الفتيات الجزائريات اللائي كن يقاسين من عذاب المنزل أو السجن المشروع ما قد يودي بحياتهن كما أودى بحياة زكية . وهي نفس البطلة التي سيظهرها الكاتب في شخص عائشة في مجموعته (نماذج بشرية) مع فارق بسيط .

ان البطل في الرواية الجزائرية كما رأينا ليس مثلًا أعلى ولا نموذجًا خارقًا تتجسد

---

(1) نعرف الان أن الشرايبي ليس جزائريًا ، ومع ذلك أبقينا على هذه الفقرة .

فيه فكرة أو مبدأ عام ، وإنما هو إنسان واقعي فيه كل ما في الواقع من مأساة وحرارة وصراحة سواء كان هذا البطل صغيرًا أو كبيرًا ، رجلًا أو امرأة ، يمثل عمالًا في المصانع أو نساء بين أربعة جدران .

2) في القصة :

أما القصة أو الاقصوصة فقد تطور البطل فيهما شيئًا فشيئًا إلى أن صار ممثلًا لفكرة وطنية أو فكرة مضادة (الخيانة) . وهذا التطور يعود في الحقيقة إلى تطور المفهوم السياسي في الجزائر . فمنذ الحرب العالمية الثانية دخل هذا المفهوم مرحلة جديدة إيجابية يقتضيه العمل على التخلص من الاحتلال . وقد تجمعت كل التيارات حول هذا المفهوم حتى تلك التي كانت يومًا ما مضادة أو مترددة أو غير مؤمنة بمستقبل سياسي وطني للجزائر . فقد خاب أمل الجزائريين الوطنيين في الحلفاء وساء ظنهم بالأجنبي حيث كان ، وظهر شعور عميق بالكراهية للاحتلال في شكل أحداث 8 مايو 1945 ، واستمر ذلك في حملات الصحافة والندوات والاجتماعات إلى أن بلغ حد العنف والتمرد والثورة في فاتح نوفمبر 1954 .

وأبطال هذه الفترة يمثلونها آصدق تمثيل ويعكسون مشاعر الجماهير الوطنية في حدة وقوة سواء كانوا في الجزائر أو خارجها . وأحسن من يمثل هذه الفترة ابطال أحمد عاشور ، وعلى الخصوص ابطال يوم الجلاء ، وزواج عصري ، والرجلان والدب الأبيض ، والاندماج وزوجة أوروبية . ففي أقصوصة يوم الجلاء مثلًا يتلاقى البطل — وهو مواطن جزائري — مع كاتبة مسرحية فرنسية صحبة أخيها الرجل الصحفي المؤمن بالاشتراكية إلى أبعد الحدود . ويبدأ الحوار بين الثلاثة بسؤال السيدة للبطل عندما ترى العلم الفرنسي يرتفع مكان العلم الألماني — لماذا لا يبدو عليك الفرح مثلنا ؟ — لقد كان ذلك ممكنًا لو أن علمنا هو الذي يرتفع مكان علمكم في الجزائر . — (مندهشة) هل تمثل او تتهكم ؟ وهنا يتدخل أخوها الاشتراكي — إن كنت تعلمين أن هذا السيد جزائري فهو يقول الجد ولا يتهكم . — ولكنه فرنسي — ان هذه الحرب قد انتهت بثورة الشعوب المستضعفة في العالم كله (في حماس رهيب) — إن تحققت هذه الفكرة فالتاريخ سيعيد نفسه في الشمال الافريقي بنشاط عظيم ... ويومئذ — (البطل) ويومئذ يصير الشعب

غير معطل عن استعمال مواهبه ــ (هي) حبذا لو كان هذا فقط . وفي هذه اللحظة يدوي صوت الرصاص فتحتمي هي بالبطل فيقول لها ــ هذا ما تريدون منا : الحماية . فتسكت هي ولكن أخاها يبتسم .

إن هذه الروح الجديدة التي تجسدت في البطل هي التي سادت قصص هذه الفترة تبعًا لسيادة نفس الروح في الألوان الأدبية الأخرى كالمقالة مثلًا . وهي التي سادت انتاج أحمد رضا حوحو ، وشريف الحسيني ، وزهور الونيسي . والأخيرة قد أعطت صورة صادقة عن المرأة الجزائرية في تأخرها وقسوة المجتمع عليها وتطلعها إلى حياة أفضل وأكرم حين يتاح لها حظ من الثقافة . وهي كذلك قد رسمت خطوطًا كبيرة لمجتمع الغد لاننا نجد صراعا واضحًا بين واقع مر وبين غد منتظر يحاول المجتمع أن يصل إليه لا لكونه املا سياسيًا فقط بل لكونه فجرًا حياتيًا فيه نهوض اجتماعي وتحرر سياسي واندفاع ثقافي واقتصادي . ويتلاقى مع السيدة زهور في هذه المحاولة حوحو في قصتيه (عائشة) و (صاحبة الوحي) ، وعاشور في قصتيه (عانس تشكو) و (صالح وخطيبته) والحسيني في قصته (سوزان) .

أما البطل الذي يمثل الفكرة المضادة حسب القصة الجزائرية فنجده في الأقاصيص التالية لأحمد عاشور (الامام المزور) (المعلم الساحر) (درس في التوحيد) . وأقاصيص حوحو (سي عزوز) (سيدي الحاج) (الشيخ زروق) . وكذلك في بعض إنتاج عبد المجيد الشافعي . ففي هذه القصص يقوم البطل بادوار غريبة فيقدم على الخيانة أحيانًا والشعوذة وبيع الضمير أحيانًا أخرى ، واستغلال البسطاء والجهال أحيانًا ثالثة . فالبطل هنا شخص تافه ليس له رصيد من شجاعة أو ضمير . كل ما يريده ويسعى له هو الحصول على لقب أو كرسي أو مال أو وسام أو حتى وظيفة حقيرة . انه في هذه الأقاصيص مثال للبطل الأرضي الذي يهمه فقط إشباع غرائزه الدنيا بما فيها من أنانية وجبن وبشاعة ولو أدى به ذلك إلى التضحية بوطنه أو مبدئه أو دينه وجميع مقدساته .

وقد كان هدف القصاصين الجزائريين من وراء هذه الصور البشعة لفت انظار المجتمع إلى أمثال هؤلاء المثبطين فيتخلص منهم ويقضي على وجودهم بالثقافة السياسية والأخلاق العالية والوعي الاجتماعي . وهكذا نجد البطل حتى في صورته الدنيا وأعماله اللاأخلاقية يدفع بالوعي القومي خطوات في طريق التحرر من

الماضي ومن الفرقة والتواكل واليأس . كل ذلك يؤديه البطل بطريق الضدية والتصوير بالكلام والأعمال الصارخة .

3) في المسرحية :

يقول نقاد المسرح الواقعي أن النثر قد جنى على المسرحية وصيرها تافهة في نظر الزمن لا تكاد تشاهد حتى تنسى ، ويذهب ما فيها من معالم وما تسوقه من أهداف . وهم يصرون على أن لغة الشعر أنسب وأجل قدرا وأكثر قابلية للخلود لما تحمله من عناصر باقية تتجدد طرافتها ودهشتها كلما أعيد تمثيلها.وقد يكون هؤلاء النقاد من أمثال سومرست موم وفرانسوا مورياك متشائمين بمستقبل المسرحية النثرية ، وقد تكون تجربتهم مع المسرح والقراء أثبتت لهم صدق ما يدعون . ولكن الذي لا شك فيه أن هناك مستوى لغويًا وضمنيًا يجب أن تحافظ عليه المسرحية ، واقعية كانت أو رومانتيكية ، تاريخية أو معاصرة . وهذا المستوى هو وحده الكفيل باعطاء المسرحية قوة الحياة وأزدهارها بعناصر البقاء والتجدد ، فليست العبرة بالناحية الشكلية من نثر أو شعر بقدر ما هي ناحية موضوعية تتمثل فيها الطرافة والحيوية والصدق الواقعي . ولو كان الشعر هو الطريق لانجاح وتخليد المسرحيات لما فشلت ونسيت مسرحيات كثيرة عرفها نظارة القرن السادس والسابع عشر . صحيح ان للشعر ذخيرته من الخيال والعاطفة وجمال الصورة وشفافية اللغة ، ولكن هذا ليس كل شيء لضمان الخلود فان للنثر أيضًا جاذبيته وقربه من الذهن وإمكانياته التعبيرية التي لا تتوافر للشعر مهما كان واقعيًا .

ولعل الذي أغرى هؤلاء النقاد بمتابعة هجماتهم على المسرحية النثرية الواقعية انهم وجدوا الشعر أكثر تناسقًا مع جلال النماذج البطولية الخالدة ، وانهم وجدوا هؤلاء الأبطال (النماذج) قد ظلوا محل اعجاب وتقدير من الأجيال المتعاقبة متخذين من أبطال شيكسبير وكورناي وراسين وغيرهم حجة على خلود المسرحية الشعرية . والحق اننا لا نريد الاستمرار في مناقشة هذه المشكلة ، وحسبنا تقديم أبطال المسرحية الجزائرية ومعرفة الطريقة التي عالج بها الكتّاب والشعراء هذا اللون من الأدب . ولعل أول ظاهرة تلفت نظرنا هي أننا لا نجد سوى مسرحية واحدة شعرية تاريخية وهي مسرحية (بلال) للشاعر محمد العيد .

وموضوع هذه المسرحية معروف إذ تدور حوادثها في الحجاز على عهد ظهور الاسلام . وعقدتها هي الاستماتة في سبيل العقيدة ، والبطل فيها يظل مثالا للايمان القوي والصبر الطويل حتى انتصر في النهاية . والمسرحية تحمل كثيرًا من بذور المأساة في لغتها وحوادثها وأهدافها . وقد اعتقد الشاعر ان بطله يؤدي بذلك عملا قوميًا هادفًا . فان بلال قاوم جميع المغريات ورضي بالعذاب والاهانة في سبيل عقيدته حتى النصر . وفي الوقت الذي كان فيه الشاعر يقدم بطله على النحو التالي كانت الجزائر كلها تقاوم مغريات شبيهة من اندماج ومساواة بفرنسا . وقد استعذبت الألم في سبيل المحافظة على شخصيتها القومية حتى انتصرت هي الأخرى في النهاية .

ومن قول بلال يتحسر ويتمنى وهو يعاني آلام القيد والرق :

آه من الـــــرق آه	قد ضقت بالرق ذرعًا
لو اننـــي كنت حرًا	صدعت بالدين صدعًا
كيـف الخـلاص فانـي	وقعت في شق أفعى !

وفي سنة 1950 أصدر أحمد توفيق المدني مسرحية (حنبعل) التاريخية النثرية . وحنبعل قائد وطني أفريقي ثار على الاستعمار الروماني وانتصر عليه في عدة وقائع وطارده حتى مدينة روما نفسها . ولكن الرومان جددوا الهجوم فلم ير حنبعل بدًا من الصلح معهم تحت ضغط رجال السياسة من حاشيته وخيانة بعض أفرادها . وقد تولى حنبعل سلطة البلاد (قرطاج) بنفسه ، ولكن حين اشتد أمره وأخذ يعمل على تقويض ملك الرومان بافريقية تحرش هؤلاء به وأرادوا له السوء ، فلم يسع حنبعل إلا السفر إلى الشام حيث اشترك مع اليونان في استرداد أثينا التي كان الرومان قد أخذوها . ثم انتقل تحت ضغط الظروف السياسية إلى آسيا الصغرى ، وهناك أخذ يعمل من جديد ضد روما بنشاط كبير أثار الرعب في نفس القنصل الروماني العام في تلك المنطقة وجعله يطالب بتسليم حنبعل باعتباره أحد الرعايا الخارجين على روما . ولكن حين علم حنبعل بعزم السلطات على تسليمه إلى الرومان شرب السم وأنهى حياته بشرف .

ولعلنا نرى من هذا التلخيص الموجز ان المسرحية تكاد تكون مأساة في كل شيء كما عرفها القرن السادس والسابع عشر ، بل كما صورها الاغريق من قبل .

فالبطل شخص ممتاز مؤيد بكل خصائص القوة والبأس والجرأة والوطنية ، وهو محاط بالاعداء من كل جانب في الداخل والخارج ، وكان عليه أن يناضل ليتخلص من الجميع وينتصر ، ولكن كيف ؟ ان الظروف العديدة تتدخل لتطوح بالبطل إلى الشرق وليجد الأعداء هناك أيضا . ولو عمد الكاتب إلى تغيير بسيط في الحوادث ولم يلتزم بالواقع التاريخي حرفيًا ، ولو هيأ الظروف لانتصار البطل في النهاية كما فعل كورناي في (السيد) لكانت مسرحيّة (حنبعل) مأساة عنيفة تعود بنا إلى ما قبل زمننا الحاضر بمسافات بعيدة . إن الكاتب لم يراع الجمهور وشدة إعجابهم بالبطل المناضل وهو يسقيه السم ليختم به صفحة حياته الرائعة . ولو أحس باحساس الجمهور بدل ذلك الاحساس المرهف بالتاريخ لاعاد الينا البطل حنبعل وفي يمينه رأس عدوه (شيبيو) وعلى رأسه اكليل الغار .

ولكن أسلوب أحمد توفيق المدني الخطابي المفعم بالعواطف والمبالغات التصويرية قد قرب لغة المسرحية من لغة الشعر ، وهي اللغة المحببة لدى التراجيديين . وقد مثلت هذه المسرحية عام 1948 ونشرت كما قلنا في 1950 (1) . وهذا التاريخ يعتبر نقطة التجمع أو فترة الهدوء الذي يسبق العاصفة لا في الجزائر فحسب بل في المغرب العربي كله ، ولذلك لم تكد تمر سنتان بعد ذلك حتى انقلب ذلك التجمع إلى مشاعل ترتفع في كل مكان، وانقلب الهدوء إلى عاصفة جامحة تنادي بالتحرر والتخلص من الأعداء . وقد كانت (حنبعل) ذات هدف سياسي معين ، ولذلك أهداها الكاتب إلى « الشباب المغربي حامل راية الكفاح في سبيل الحرية وشرف الوطن » ويقول على لسان حنبعل « ان من اعتبر رجال الشعب عبيدًا صيرهم لا يفكرون إلا في الانتقام . إن عشنا فالوطن لنا جميعًا وإن متنا فالوطن لأبنائنا من بعدنا إلى الأبد » وينطقه بهذه الجملة « إن العدو عدو دائما » وبالعبارة المشهورة « لقد ولدتنا أمهاتنا أحرارًا » .

وبعد الثورة بشهر واحد أصدر مصطفى الأشرف مسرحية (الحاجز الأخير) وهي مسرحية تحمل سمات جديدة للواقع وللكفاح معًا . إنها تصور الشعب الجزائري وقد تخلص من حيرته وبدأ يتحسس طريقه الشاق الذي يؤمن بأن اجتيازه

(1) طبعت طبعة ثانية بعد الاستقلال.

لن يكون سهلًا . والمسرحية تعطي الاشارة إلى بداية المعركة الفاصلة أو المأساة التي لم تتم فصولها بعد كما يقول الكاتب ، تلك التي يعيشها الجزائريون منذ حملوا السلاح بقيادة الأمير عبد القادر إلى الغد المنتظر كما يشير الكاتب أيضًا .

وحوادث هذه المسرحية تجري خلال شهر ديسمبر 1954 وهي لحظة الانطلاق بالنسبة إلى الشعب الجزائري . والكاتب لم يرد أن يجعل للمسرحية بطلا معينًا معروفًا بالاسم والوصف ، ولا أن يجعل لها عقدة واحدة خاصة تدور حولها الفكرة ، ولذلك عدّد الاشخاص ونوّعهم ، وغاير في المكان وحاول أن يعطي صورة كاملة للشعور العام عند الثورة . وقد يكون البطل في الحقيقة هو الشعب نفسه الذي أعلن الثورة ، وحينئذ فالمسرحية لا تمثل شخصًا من الأشخاص أو موقفًا من المواقف ولكنها ترمز إلى الشعب كله .

ففي الفصل الأول يعرض الكاتب جمعًا من النسوة تجمعن أمام باب أحد سجون عاصمة الجزائر يحملن سلالًا من الطعام إلى ذويهم . وتدور بينهن مناقشات مختلفة حول الوضع العام فتقول احداهن : « إننا مع أبنائنا وأزواجنا . إن هذا الباب يفصل بيننا ولكن القدر يصلنا ، والسجن واحد هنا وهناك » . وتقول أخرى : « إننا نساء مسكينات وحيدات لكننا سنعرف كيف نقوم بكل الأعباء من اليوم إزاء الأبواب التي تنغلق أو التي لا تفرج إلا لتغلق . سنكون مفاتيح الخلاص الخالدة » والحق اننا في هذا الفصل لا نستطيع أن نتبين ملامح بطل بعينه . إننا إزاء فكرة تعرضها احدى أولئك النسوة في قولها : « كلنا — رجالًا ونساء — على هامش الحياة . والعالم بفعاله وفي سيره نحو أهدافه حامل علينا نحن المكبلي الأيدي » ولعل الكاتب أراد ، إلى جانب ذلك ، أن يعطي صورة للمرأة الجزائرية ودورها في المفهوم الثوري الجديد .

وفي الفصل الثاني يعرض الكاتب نفس الفكرة في ثوب آخر.إننا نرى سجنًا قبيحًا وبلاطًا خشنًا يجلس عليه خمسة رجال مستندين إلى الحائط . ومع هؤلاء طالب مثقف قوي العقيدة عكس عليه الكاتب كثيرًا من الأضواء ، وركز عليه كثيرًا من الاهتمام لأنه ، فيما يبدو ، كان يرمز به إلى فكرة البعث والاصرار الجديدة ، فالطالب يقص على زملائه ما جرى له من التعذيب والمعاملة السيئة

ويقول : « اننا جميعًا كائنات ضعيفة ولكن عزيمة الانسان أبعد من ذلك إذا كان الخير وازعها » . ويقول في مكان آخر وهو يحاول أن يبعث روح اليقظة والاصرار في أحد زملائه : « ألست رجلًا كالآخرين في هذه البلاد التي نصف ساكنيها شباب » وفي موضع آخر يقول : « اننا لا نطالب أحدًا بأن يكون بطلًا أو شهيدًا . ان المحبيين إلى قلوبنا هم أولئك الذين يضطربون بيننا بلا كلفة ويأتون من الأعمال ما يكون مثلًا يمكن احتذاؤه دائمًا . حقًا اننا في حاجة إلى رجال عاديين لم يبلغوا حد الامتياز عن سواهم لنؤمن بأنفسنا » .

هذا ، حينئذ ، هو البطل الذي صور هذه الفترة الدقيقة من تاريخ الجزائر .

إنه ذلك الذي يضطرب بيننا بلا كلفة ويأتي من الأعمال ما يمكن احتذاؤه دائمًا ليجعلنا نرى أنفسنا ونؤمن بها . وهو نفس الانسان الذي يقدمه لنا مرزوق في الفصل الثالث حيث نرى حليمة ــ زوجة مرزوق ، أحد المجاهدين ــ جالسة تهدهد طفلها في المهد في كوخ حقير بينما تدخل عليها جارتها مريم حاملة اليها زادًا من الطعام . ويدور النقاش بين السيدتين حول الحرب ومداها وأهدافها . ونعرف مهمة مرزوق من هذه المقارنة التي تعقدها مريم بين زوجها وزوج جارتها إذ تقول : « لقد أوقفوه وسينسونه وراء الأبواب الحديدية بنفس السهولة التي انتهوا بها إلى وجوده . أما مرزوق فهو اليوم يكسب معركة من نوع آخر ، حرية من نوع آخر تعوزنا نحن » .

وعند انصراف الجارة مريم يدخل مرزوق الزوج الثائر ليرى طفله ويطمئن على زوجته إثر معركة جرت قرب المكان . ونسمع هنا مرزوق يحدثنا عن الماضي الحزين الذي إنتهى بالفشل فيقول : « وبفضل الأكاذيب السياسية كان الداء يستفحل يومًا فيومًا حتى الفينا أنفسنا بمعزل عن الشعب » ويصف درجة الحقد واليأس التي اجتاحت البلاد في تلك الفترة فيقول عن الاستعمار : « ان هذا الوحش الطليق يفترس منذ قرن اخيارنا وأكثرنا براءة » . ويطلعنا الكاتب على شعور المرأة بالذات في هذه المأساة على لسان حليمة وذلك إذ تقول في مناقشة مع زوجها : « نحن الأمهات نمشي قدمًا وأبناؤنا ينبتون كالشجرات دائمًا إلى أعلى » . وشيئًا فشيئًا تتضح الفكرة التي قامت عليها المسرحية وتطل من خلف الاشارات الفنية

في روعة وانتصابة ، وذلك حين يقول الكاتب على لسان مرزوق « إن كفاحنا الحقيقي ليس كفاحًا مسلحًا فحسب بل انه يمتلك النفوس أيضًا ، انه كفاح محجب وعميق كالمستقبل » .

إن مسرحية (الحاجز الأخير) نذير بالعاصفة التي تكتسح ذلك السد وتقوضه ، وهي في الوقت نفسه بداية طريق جديد . وقد أوضحت الثورة معالمه وحددت أهدافه وهي الآن تسير إلى نهايته المحتومة بخطى أشد حماسة وأوسع مدى من أية ثورة أخرى في العالم .

وهناك مسرحية أخرى ذات أربعة فصول كتبها أحمد بن ذياب ، وبطلها هو الكاتب نفسه في طفولته وشبابه . وهي مسرحية اجتماعية هادفة أيضًا . والبطل فيها يحمل بشدة على العادات والتقاليد السائدة في الأسرة الجزائرية وطريقتها في معاملة الربيب . ويبدو أن المؤلف قد عانى كثيرًا من زوجة أبيه مما يعانيه أمثاله في تلك البيئة . ويظهر أن التجربة كانت قاسية عليه . وقد سمى الكاتب مسرحيته (امرأة الأب) واخرجها عام 1953 .

والحق ان هذه المشكلة يعاني منها الأطفال الجزائريون ، ولا سيما أولئك الذين حرمهم القدر من عطف الأمهات وحنانهن بالموت أو الطلاق.وقد تصرف البطل مع زوجة أبيه كما يتصرف سائر الأطفال في ذلك الجو القاسي . وبذلك كان البطل في (امرأة الأب) واحدًا من الناس ولم يكن مثلًا أعلى فيما أقدم عليه . وكان في تصرفه يترجم عن شعور اجتماعي سائد ، وغاية الأمر أنه أوحى إلى الآخرين ان ما فعله لم يكن بلا مبررات . ولعل هذه المسرحية كانت تكون أنجح وأعمق لو تغلب عليها الطابع الكوميدي .

ونخلص من كل ذلك إلى أن هؤلاء الكتاب الأربعة قد أقاموا مسرحياتهم على فكرة الايمان في (بلال) والمجد والشرف في (حنبعل) والحرية في (الحاجز الأخير) والأخلاق في (امرأة الأب) . وكان البطل في كلّ هذه الأعمال ـــ سواء كان يمثل شخصًا أو فكرة ـــ قد تصرف حسب ارادة الكاتب لا كما يقتضيه الواقع أحيانًا ، فقد انتصر بلال وكان من الممكن أن ينتصر الضعف الانساني ، وسقط حنبعل وكان من الممكن أن يعود منتصرًا ، وتصلبت ارادة الجزائر وكان من الممكن أن

ينتصر الشر والسلاح الحديث ، ويتخلص البطل في امرأة الأب وكان من الممكن أن يخضع لمشيئة الظروف والبيئة .

4) في الأدب الشعبي :

احتفى الجزائريون ايما احتفاء بالبطولة في الأدب الشعبي . وقد كان هذا اللون حاجة لا غنى عنها في اسمارهم وافراحهم ومآتمهم ، في جدهم ولهوهم ، بل في إيمانهم وخرافاتهم . وهو اللون الوحيد الذي ابقت عليه الأيام بالنسبة اليهم . لقد مثل الأدب الشعبي حياة الجزائر على اختلاف طبقاتها واتجاهاتها . فلم يخل مجلس أو ندوة فرح أو جلسة مأتم من طرائف هذا الأدب وغرائبه . وكان أبطاله أبا زيد الهلالي والجازية وبو سعدية والزناتي خليفة وغيرهم ممن تزخر بهم أساطير الشعب شعرًا ونثرًا وزجلا ومثلًا . وكان هؤلاء الأبطال محل اعجاب أو مثار نكتة وعبرة أو قدوة للآخرين . والأدب الشعبي على اختلاف قائليه ومغنيه من عبابسة إلى بو قطاية صورة لحياة الشعب الجزائري الذي بقي دائمًا مرتبطًا بتراثه الشرقي وروحه العربية مدى العصور رغم شدة التيارات التي تحاول تجريده منهما . ولعل المقام لا يتسع للاستشهاد لهذا الأدب ، وحسبنا هذه الاشارة .

5) في الشعر :

ان الشعر أحق فنون التعبير بتمجيد البطولة وتخليد الأبطال لأنه يجمع إلى الأداء المجرد جموح الخيال وعمقه وقوة العاطفة وحرارتها وشمول النظرة ونفاذها ، ولذلك خلدت به بعض الآثار الكبيرة . ولعل هذه الخاصية هي التي حملت البعض على القول بأن الواقعية قد تدلت إلى الهوة حين فضلت النثر على الشعر . ولكن الذي يهمنا الآن هو تصوير الشعر الجزائري لشخصية البطل . هل عامله معاملة اسطورية خارقة ؟ هل استفاد من تطور الزمن والأحداث فجعل البطل وليد هذا الزمن وتلك الاحداث ؟ وماذا فعل ازاء تواري الشخصيات في الجزائر وظهور المبادىء والأفكار بدلًا منها ؟ .

أول ما نلاحظه على هذا الشعر هو تدرجه في نظرته إلى البطولة . فقد بدأ بتمجيد الأشخاص الذين يصح أن نسميهم (أصنام الأحلام) ، وانتهى في آخر الأمر إلى نوع آخر من تمجيد البطولة في صورة ليست للاشخاص ولكنها

للمبادىء . هذه هي أهم مرحلة يجب أن يقف عندها الشعر طويلًا ويستمد منها الوقود لنفسه وللشعب الذي ينطق بلسانه ويعكس وجدانه ونظراته في الحياة . ان الاشخاص مهما كانوا غير عاديين ، ومهما أشادوا ليسوا إلا أشخاصًا (أصنامًا) . وقد انتهينا من عبادة الأصنام وتغيرت نظرتنا إليها . وهذا هو الذي شجعنا على الاستمرار في الكفر بها واحتقارها إلى الأبد .

وثمة فرق آخر بين تمجيد الاشخاص والمبادىء كما عامله الشعب الجزائري . ذلك ان الشخص أو البطل قد يكون إلهًا كما اعتبره قدماء الاغريق ، وقد يكون طاغية أو رسولًا أو خرافة كما نظر اليه الرومان والمسيحيون والمسلمون . ولقد مجد الناس قديمًا هذا البطل المصنوع مرة من نور وأخرى من نار ، مرة من طين وخشب وأخرى من خرافات وأساطير . ولكن بعضهم قد ضجوا من هذا التزييف لارادة الانسان وطبيعته ، وطالبوا أن يستمد الشعر بلاغته ونصاعته وتأثيره من الانسان نفسه كما هو في الواقع المادي لا كما تطير به أجنحة الشعراء . ومعنى ذلك انه كان على الشعر أن يلتفت إلى المبادىء الخالدة والجذوة الانسانية اللاهبة مهما اشتدت العواصف وتغير الزمان . غير أن بعضهم مازال يعتذر بأن أولئك الاشخاص (الاصنام) ليسوا في الحقيقة إلا رموزًا خالدة ، وان الشعر بتمجيده لهم وتسبيحه بحمدهم انما يرفع من ذلك (الشيء) الذي لا يموت .

وعلى كل حال فان الشعر الجزائري قد بدأ بتمجيد الاشخاص متجاوبًا في ذلك مع ما حوله من اصداء عربية . وسار على هذه الطريقة حقبة من الزمان سجل خلالها بطولاتهم ، وتتبع سيرهم وأخبارهم ، وفاخر بأعمالهم ، ورفعهم في بعض الأحيان إلى مراتب القديسين والأنبياء والخرافيين . وكان أول أمره قلما التفت إلى الواقع . كان مندفعًا تحت رغبة جنونية إلى المبالغة والتعالي ، فصور هؤلاء الأشخاص كأنهم من عالم آخر غير عالمنا جاءوا لينقذونا مما نحن فيه من هوان وتراب . ومن عجب أن هؤلاء الاشخاص مازالوا يزوروننا من وقت لآخر فيحتفي بهم الشعر أبلغ احتفاء ، وينسى بالرغم عنه انهم قد يكونون لا شيء في عالمنا الحاضر والمستقبل على السواء .

ومما جاء في الشعر الجزائري من هذا الضرب بعض مراثي محمد العيد وخصوصًا

قصيدته (ملك بني عرشًا) وبعض شعر الباتني خصوصًا قصيدته (حشاد) و(خطب الجزائر) لأبي اليقظان وغير ذلك من شعر المناسبات الشخصية .

من الشعر البطولي قول الأمير عبد القادر مفتخرًا :

لنا في كل مكرمة مجال	ومن فوق السحاب لنا رجال
لنا الفخر العميم بكل عصر	ومصر ، هل بهذا ما يقال ؟
ورثنا سؤددًا للعرب يبقى	وما تبقى السماء ولا الجبال
فبالمجد القديم علت قريش	ومنا فوق ذا طابت فعال
ومنا لم يزل في كل عصر	رجال للرجال هم الرجال

ويقول أحمد الباتني في قصيدته (مصرع حشاد) :

مادت الأرض للفجيعة	وارتاعت شداد القلوب والاطواد
قائد جدد الحياة وأنمى	في مغاني البلاد كل مراد
فبكاه الشمال وهو حزين	وتناعته صادحات الوادي
شقت الجيب كل ذات حجاب	وسواد على فقيد الضاد

ولكن الشعر الجزائري قد نظر إلى البطولة من زوايا أخرى حديثة ولم يقصرها على تلك الشخصيات الباهتة التي تذهب نضارتها بذهاب أصحابها . فقد طرق عدة موضوعات حياتية عرف منها أن البطولة ليست عملًا إنسانيًا فحسب أو تلك المبالغات السخيفة التي ترفع البطل إلى درجة الآلهة والملائكة والمعصومين ، ولكنها قد تكون ممثلة في المدينة الصامدة أو المدرسة المثقفة أو الجبل الذي عاصر الزمن والأحداث ولكنه بقي شامخًا متكبرًا . كذلك وجد الشعر الجزائري أن البطولة قد تكون ممثلة في أولئك المصلحين الصامتين العاملين لخير الشعب والوطن دون أضواء أو اعلانات ، أو في تلك المبادىء العقيدية الرائعة التي تسمو بالانسان كالدين والوطنية والقومية والحرية والكرامة والانسانية .

ولا نحب الآن أن نذكر كل موضوعات الشعر الجزائري التي أشاد فيها بتلك البطولات الخالية من الأسماء اللامعة والتهويلات التي تثير في أكثر الأحيان ، الضحك لا الاعجاب ، وتبعث على السخرية والكفر لا الاحترام والتقديس .

فالمجال هنا لا يسمح بالاستشهاد لكل فكرة ، وحسبنا أن نذكر بعض الشواهد ليقف القارىء على مدى تطور الشعر من ناحية ، وتطور فكرة البطولة من ناحية أخرى ، في شعب كفر بالأشخاص وآمن بالمبادىء الخالدة .

وقبل أن نذكر تلك الشواهد لا بد من توضيح نقطة هامة في تاريخ الجزائر السياسي يجب أن يقف عندها كل دارس أو مهتم بهذا التاريخ . ابان ظهور الحركة الوطنية كانت الجزائر تمجد بعض الشخصيات وترفع من قيمتهم إلى سماوات عالية لم يكونوا ، في الحقيقة ، أهلًا لها . واستمرت في هذه المعاملة حوالي نصف قرن ، وقد استغل هؤلاء الاشخاص هذه المعاملة السخية من طرف الشعب فراحوا يتطاحنون على الزعامات ويتصارعون من أجل الظفر بكرسي أو لقب . وانخدع الشعب بعض الزمن بذلك فكان هو الآخر يتناحر وينقسم على نفسه ويضرب بعضه بعضًا انتصارًا لفلان على فلان . ولكن هذه الحالة لم تستمر طويلا لأنّ الحزبية أظهرت افلاسها . وسرعان ما ظهرت طليعة واعية رائدة واستيقظ الشعب على الحقيقة ، واختفى أولئك الاشخاص أو الممثلون . وكان هذا مقدمة ضرورية لتوجيه الرأي العام نحو الثورة التحريرية الكبرى التي أعلنت في فاتح نوفمبر 1954 .

ومن حسن الحظ ان الشعر الجزائري لم يكن حزبيًا حتى في أشد عهود الحزبية ازدهارًا . بل إنه طالما حمل عليها ونادى بالتخلص منها وتوحيد الصف والعودة إلى الشعب . ولم يكن في استطاعة أي حزب أن يستميل شاعرًا واحدًا إلى صفه ، فبقي الشعر بعيدًا عن السياسة بمفهومها الحزبي الضيق ، ولم يدخل معركة المهاترات التي كان ينظمها الرعاع . لقد دخل الشعر معركة الاصلاح وحمل على الفساد والطرقية والاستعمار والفرقة والرجعية ، وأشاد بالعاملين الصادقين من أبناء الوطن ، وأثنى على أعمالهم واستوحى جل موضوعاته من طريقتهم في العمل وخططهم في التنفيذ فكان حقًا صورة صادقة معبرة عن كفاح الشعب .

من الشواهد التي مجد فيها الشعر المبادىء والأفكار لا الأشخاص قول محمد العيد في الحرية بطريقة غير مباشرة .

ولقد شجت قلبي وهاجت عبرتي ورقـــاء في شرف بعيـــد عال

حمراء حرر جيدها من طوقها   في الورق فهي عديمة الأمثال
هتفت فقمت مجاوبًا لهتافها   ولحنت عن قصد فقلت تعالى
شرقية في الطير أو غربية   ما دمت واصلة فلست أبالي

ويقول في المدرسة العربية التي قامت تناهض الاحتلال والاستغلال والاحتكار الثقافي وتبني الجزائر العربية الاسلامية المعتزة بقوميتها ولغتها :

نمت ونما النشء الصغير على الهدى   بها ووعى فيها من العلم ما وعى
وشبت فامست للشباب طليعة   محصنة فيها الشباب تمنعا

ويقول الشاعر أحمد الباتني في الأطلس الأشم الذي قاوم الاستعمار الروماني والوندالي والتركي والفرنسي :

لكن أصلع في (آلشمال) مجربًا   أودى الزمان بريشه المعطار
رفع العقيرة وانبرت أصداؤه   ملء الأثير يصيح في التاتار
أنا رأس أفريقيا ورمز شمالها   ما للرؤوس الشوس من قهار
إني أنا العاتي إذا ديس الحمى   واهين شبلي في الحمى أو جاري

ويقول الشاعر أحمد سحنون في الامام عبد الحميد بن باديس رائد الثقافة العربية والاصلاح الوطني :

باديس يا حب الجزا   ئر يا حليف غرامها
ومعيد غاية مجدها   والغرّ من أيامها
حققت من آمالها   وشفيت من آلامها
قد كنت نفسًا عافت الد   نيا وجمع حطامها
هامت بمجد بلادها   وقضت حقوق هيامها

ويقول الشاعر مفدي زكريا في (دار الطلبة) إحدى المؤسسات الشعبية في قسنطينة :

يا دار أنت على التقوى مؤسسة   مبناك بالطهر مرصوص ومشدود

يا دار حملت آمال البلاد ففي　　أحشائك اليوم أشبال صناديد
ما بين جدرانها تحيا الجزائر لا　　من بين جدرانها تتلى التهاجيد

وأظن اني لست في حاجة الى القول بأن الشعر الجزائري في الآونة الأخيرة (عهد الثورة) قد وجد البطولة الحقة ممثلة في الثورة نفسها بما فيها من ايمان وحماس ومجد . ان الثورة قد الهمت الشّعر كثيرًا من الموضوعات التي لم يكن يخوض فيها من قبل. فقد حررته الثورة من قيود الرمز والاشارة والمهادنة والخوف والاصلاح الموقر. لقد ظهرت بطولات جديدة ممثلة في جميلة وابن صادق وزهانة وآلاف المجاهدين والفدائيين. والمجاهدات والفدائيات في قمم أوراس وغابات جرجرة وسهول وهران وربوع الصحراء، ووجد الشعر في كل ذلك مادة غنية للقول الصريح والتعبير الحر عن البطولات والأبطال.

ولعل من سبق الحوادث أن نتحدث عن هذا الشعر في عهد الثورة . ذلك أن الواجب يقتضي أن نترك ذلك إلى ما بعد الاستقلال ليدرس دراسة خاصة يراعي فيها التطور الزمني وظروف الحرب والبيئة التي عاشتها الجزائر مدى خمس سنوات . إن التاريخ الجزائري لا بد أن يعاد فيه النظر وأن يكتب من جديد على ضوء شخصية الجزائر المستقلة ذات الامتداد التاريخي والعلاقات الوطيدة في الماضي والحاضر بالشرقين العربي والاسلامي. ولكن ما قلناه عن الشعر في عهد الثورة لا يعدو أن يكون إشارة إلى دوره في تسجيل البطولات وتخليد الأبطال الذين لا يحملون من علامات الشخصية البطولية تاجًا أو صولجانًا ، ولكنهم يحملون خنجرًا وبندقية وإيمانًا راسخًا بالنصر والحرية .

الغزل في الشعر الجزائري

في البحث الخاص بالشعر الجزائري الحديث (*) ذكرت بأن الشعراء لم يتناولوا الغزل فيما طرقوا من موضوعات،ولم أشأ إذاك أن أتحدث عن غرض معين في هذا الشعر ، لأني كنت أهدف إلى التصميم فقط . وقد رأيت اليوم أن أوضح هذه الظاهرة محاولًا تعليلها وتحديدها في ضوء العوامل المختلفة التي نشأت فيها وتأثرت بها .

أوّل ما يلفت النظر هو العامل الاجتماعي . والذي يفيدنا من هذا ليس الحكم عليه بالرجعية أو التقدم ، ولكن تدخله في توجيه الشعر وظروف الشعراء . والمجتمع الجزائري محافظ متدين عميق الايمان بمقوماته إلى حد العنف والقسوة أحيانًا . ويظهر ذلك في معاملته لأفراده سواء في علاقتهم بأنفسهم أو بالآخرين . وهو كذلك مجتمع مرتبط إلى تقاليده وعاداته آرتباطًا عقائديًا يكاد يكون أعمى . ومن هنا كان من الصعب في هذا المجتمع إعتناق مذهب جديد أو الترحيب بفكرة رائدة . ولعل ذلك يفسر قلة الطفرات والشذوذ الفكري في المجتمع الجزائري .

وليس من شك في أن مجتمعًا بهذا الطابع وهذا السلطان ، سوف يكيف نفوس أفراده ويقيد حريتهم إلى حد كبير . وليس من شك أيضًا في أن الشعراء

---

* بحث نشر في مجلة « الآداب » اللبنانية العدد الخامس 1958 .

أكثر هؤلاء الأفراد إحساسًا بهذا الجو الحرج ، وتمثلا لمضمونه . فالنظر إلى المرأة حرام أو عيب ، والتحدث اليها أو عنها ، عمل لا أخلاقي ، لا يعمد إليه إلا السفلة والمنحطون . وبمجرد ظهور الأنوثة على الفتاة تصبح جزءًا من بيت أبيها ثم زوجها . وهي لا تتزوج في العشرين أو الثمانية عشرة ، بل في الخامسة عشرة أو أصغر من ذلك . والفتى لا يمر عادة بمرحلة الكبت والشوق ، ولا يعرف مناجاة القمر وسهر الليالي ، لأنه غالبًا يتزوج وهو لا يزال مراهقًا .

والحديث عن تقاليد وعادات المجتمع تستلزم الحديث عن عناصره السياسية والثقافية والنفسية . والحق أن هذه العناصر كثيرة الفروع والزوايا . وليس غرضنا هنا تتبع ما فيها من أرقام ومنحنيات . وحسبنا أن نعرف أن التكوين السياسي في الجزائر كان يبرر هذا الاتجاه الاجتماعي . فالاحتلال — إلى جانب محاولة القضاء على اللغة والدين والأخلاق والتراث — حاول إقامة العراقيل في وجه تطور المجتمع الجزائري وتوجيهه وجهة عكسية . وقد أثار هذا التصرف من الاحتلال الشك والنقد والتمرد ، وجمد التيار الاجتماعي الذي وجد العزاء في المحافظة على ما هو موجود ، وإهمال المستقبل . ولست أزعم أن هذا الاتجاه العكسي يبرر الواقع في المجتمع الجزائري ، ولكني في الوقت نفسه لا أستطيع أن أنفيه .

والثقافة الجزائرية ذات حظ عاثر ، وتتخذ شكلا إنفصاليًا يكاد يكون خطرًا على المجتمع نفسه . والحقيقة ان هناك ثقافتين في الجزائر تناصب كل منهما العداء للأخرى ، ثقافة فرنسية وثقافة عربية صرفة . ومن سياسة الاحتلال وضع العراقيل المتعددة في وجه الشباب الجزائري حتى لا يواصل دراسته الجامعية ويتصل بالثقافة في أوسع مجالاتها . أما الثقافة العربية فتتخذ شكلا متطرفًا كرد فعل للثقافة الأخرى . وهي ثقافة يسودها الجمود والتقليد ، وينتهي بها السير دائمًا إلى منتصف الطريق . إن مجالها لا يخرج عن التعليم الديني وفروع اللغة العربية . وإذا كان مثقفو الفرنسية يتعلمون في الجزائر وفرنسا ، فمثقفو العربية يدرسون في الكتاتيب القرآنية المحلية وبعض المساجد والزوايا ثم ينتقلون إلى الزيتونة بتونس ، أو القرويين بالمغرب ، أو معهد ابن باديس الذي أنشىء أخيرا في قسنطينة (1947) .

ومن الممكن أن نفترض وجود صنف آخر من المثقفين في الجزائر ، أي أولئك

الذين جمعوا بين الثقافتين . ولكن هذا الصنف قليل جدًا ، وهو بالتالي لم يستطع أن يفرض إتجاهًا ثقافيًا على المجتمع . ويمكننا أن نلاحظ سلفًا أن أكبر مشكلة ستواجه الجزائر المستقلة هي التباعد الثقافي الذي خلفته سياسة الاحتلال . ونحسب أن هذا الجو الثقافي الجاف المتباعد لا يسمح بالاشراق الذهني ، وإنعاش العواطف التي تصقل الشعر وتوجهه توجيهًا غزليًا ناعمًا كما تفعل الثقافات الحديثة .

وليس الحديث عن المشاكل النفسية في المجتمع الجزائري بأقل أهمية من الوضع السياسي والثقافي . فالتركيب السيكولوجي للفرد الجزائري يختلف عن غيره . فهو إلى جانب الكبت الذي يعانيه من جراء معاملة الأمة والمجتمع والاحتلال ، يعاني أزمات أخرى نتيجة لقسوة الطبيعة من ناحية ، وقسوة الحياة من ناحية أخرى . ومن هنا يمر الفرد الجزائري بتمزقات حادة وفراغات مخيفة ، إذ أنه لم يجد الحرية في الأسرة المحافظة ، ولا في سياسة الاحتلال الرهيبة ، كما أنه لم يجد الرحمة في ثلوج الجبال أو لفحات الصحاري . ولست أرى قول الشاعر اللقاني في الدفاع عن سلوكه والاعتذار عن الغزل إلا تعبيرًا صارخًا عن هذه القسوة ...فهو يقول :

ألا فدع التغـــزل في غوان	فتلك طريقـة المستهترينـــا
فمـن صوت البـلاد لنـا نداء	يكـاد المرء يسمعـــه أنينـــا

وإذا كان التبرير طريقة سيكولوجية يلجأ اليها الانسان للتعبير عن نفسه ، فان البيت الأول لا يخرج على هذه الطريقة . فالشاعر يرى أن الغزل خروج عن قيود المجتمع لا عن طبيعة الشعر . وما دام المستهترون منبوذين في مجتمعه ، فيجب على الشعراء أن يبتعدوا عن الغزل ، لأنه يجعلهم مستهترين في نظر المجتمع . أما البيت الثاني فيعبر عن فكرة الهروب وهي أيضًا طريقة سيكولوجية . فالشاعر هنا يتهرب من نفسه إلى المجتمع الذي يزعم أنه قد أخذ عليه كل حياته ، بما فيها من أنات وأحزان ونداءات .

وهناك ظاهرة أخرى في سيكولوجية الجزائري، وهي ما يعرف بالتعويض . ان الشعراء الجزائريين قد استعاضوا عن الغزل بالمرأة غزلًا آخر ظنوه يحميهم من سلطة المجتمع وإرهاب الاحتلال . وهذه الظاهرة توجد في انتاج الشعراء الذين اتخذوا من

حب الوطن أو وصف الطبيعة ، أو من حرج الموقف السياسي طريقا إلى التنفيس عن أنفسهم،وسأعرض هنا نموذجين لشاعرين يختلفان في الزمن اختلافًا ظاهرًا بالرغم من أنهما متعاصران . يقول الشاعر مفدى زكريا (1927) :

الحب أرقني والبعد أضناني   والبين ضاعف آلامي وأشجاني

فماذا نلاحظ ؟ إن في البيت أرقا ويأسا وأحزانًا . وتستمر القصيدة على هذا النسق ، ويكاد القارىء يقطع بأنها لا تخرج عن الغزل وتباريح الهوى . ولكن الشاعر لا يلبث أن يصل إلى هدفه فيقول :

رفقًا بلادي فأنت الكون أجمعه   لولاك كنت بلادي هالكًا فاني

ومثل هذا القول في قصيدة الشاعر أحمد الباتني (1952) التي يبدأها بهذا المطلع :

كيف أسلوك منية الوجدان   أو أجافيك والهوى ينهاني
كيف والحب في الفؤاد مكين   أتعداك نحو حب ثان
عش كما شئت يا فؤادي بحب   قدسيّ مطهّر روحاني

ونمضي في قراءة هذا الشعر الذي تطربنا موسيقاه ، وينشينا بعطوره ، ويلذنا بعذاباته وتأوهاته ، وتهالك صاحبه أمام الحب الجارف ، ولكننا نفيق على الغرض الذي يهدف إليه الشاعر (الحنين) ، ونعود فنتأمل العنوان (بلادي هواي) فندرك أن ذلك الحب وتلك الصبابة ، لم يكونا سوى تعويض عما فقده الشاعر من حرية في التعبير عن حبه . ويمكن أن يجد القارىء نماذج أخرى من هذا الشعر التعويضي في (ليلى المطلقة) للحفناوي هالي ، و(يا هزاري) لمحمد العيد ، وغيرهما .

والشعراء ، كأفراد في ذلك المجتمع ، وجدوا أنفسهم أمام الأمر الواقع ، فتزوجوا كما يتزوج الآخرون ، وغضوا عيونهم عن المرأة وكفوا عن الحديث عنها كبقية المجتمع ، واتبعوا التقاليد والعادات — ظاهريًا على الأقل — ولم ينزع واحد منهم إلى تحطيم هذه القيود أو إلى تغيير مفهوم اجتماعي أو أخلاقي كما فعل الشابي مثلا ، حين أكثر في شعره من الغزل الجسدي كقوله :

كل شيء موقع فيك حتى   لفتة الجيد واهتزاز النهود

في وقت كان الذوق الاجتماعي في تونس لا يستسيغ مثل هذه اللغة .

ولعل هذا النهج الوراثي في الشعر الجزائري ، يؤيد ما ذهبت اليه فيما كتبته عن هذا الشعر من أنه كان صدى للحوادث ، ولم يكن صوتًا حقيقيًا ينبع من ذات الشاعر ، وأن الشعراء كانوا ذيولا ولم يكونوا روادًا . فقد كان أكثرهم من المصلحين . والاصلاح في الجزائر (لا سيما في الفترة 1920 ـــ 1945) كان طريقة حياة مظهرًا ومخبرًا . فقد كان يعني أن يكون الفرد (الشاعر هنا) ورعًا له ثقافة دينية وسلفية عتيقة . كما كان يعني التعمم والتجلبب وارتياد المساجد والبعد عن الشبهات . وفي معظم الأحيان كان الشعراء مدرّسي دين وعربية ، ووعاظ منابر وأئمة مساجد وقضاة محاكم . فلا غرو أن نجدهم عازفين عن الفنون الشعرية التي ربما اصطدمت بالذوق العام كالغزل . وكيف ننتظر من شاعر ذلك ظاهره وهذا باطنه ، أن يتماجن ويعبث ويتغزل في سعاد أو نهاد ؟

على أن هناك سببًا آخر ، ربما كان له نصيب كبير في فقدان الغزل أو ضآلته في الشعر الجزائري ، ونعني به ذلك الجفاف النفسي والاجتماعي . فالترف والمرح والفراغ ، وغيرها من الألفاظ الناعمة ، لا يعرفها الجزائريون ـــ طبقة الشعراء ـــ إلا في الكتب أو عن طريق السماع ؛ وكلها الفاظ تعبّر عن حالات نفسية وتبعث على الغزل ـــ صحيح أن لدى الجزائريين فراغًا من جراء البطالة ، ولكنه فراغ أشد على النفس من الأشغال الشاقة المؤبدة في سجن بربروس . وصحيح أنك تطالع الابتسامة أحيانًا على وجه الجزائري ، ولكنها في الحقيقة ، ابتسامة المرارة التي خلفتها سنون عجاف تحت الاحتلال . وصحيح أيضًا أنك تجد لدى الجزائريين بعض منتوجات الحضارة الحديثة ، ويغريك ذلك فتحكم عليهم بالترف ، ولكن ذلك الترف الحضاري الاصطناعي يفقد لذّاته وطعمه في نفس الجزائري لأنه ترف دخيل مفروض . وقد لاحظت شخصيًا هذا الإحساس في أكثر من أسرة جزائرية ، فهو يعبر عن خيبة التقليد أكثر مما يعبّر عن نشوة الخلق .

ومن العناصر التي تساعد على الغزل ، روعة الطبيعة ، والحق أنه قد توفر للجزائر الكثير من هذه الروعة وهذا الجمال في غاباتها وجبالها ، في ثلوجها وهجيرها ، في صحاريها وشواطئها . ولكن شعراء الجزائر قد فقدوا حتى الآن

الاحساس بعمق هذه الطبيعة وروعة بلادهم . وبديهي أن الشعراء قد تناولوا الطبيعة في شعرهم ، ولكن بأي أداة وبأي احساس ؟ انها أداة تقليدية عاجزة عن التعبير بالايحاء ، وإحساس منفعل تتكدس فيه الصنعة والنشازات .

والحق ان الشعر الجزائري لم يخل تمامًا من الغزل . فقد عرفت أن شعراء الجزائر بالفرنسية ، كانوا أجرأ من اخوانهم ذوي اللسان العربي ، فتغزلوا بحرية . ولعل هذا يفسر ما ذكرناه من أن التدريس والاصلاح كانا عائقين دون انطلاق الشعراء في آفاق أرحب . وأكبر ظني أن الشعراء بالعربية قد تناولوا الغزل أيضًا . ولكن في حدود ضيقة وباحتشام كبير ، غير أنهم لم يجرؤوا على نشره في الصحف أو اذاعته على الأسماع . وبذلك ظل انتاجهم الغزلي وراء ستار التقاليد .

محاولاتنا في النقد الأدبي

إلى أي حد ساهمنا في حركة النقد الأدبي وتطويرها (*) ؟

هذا السؤال طالما ألح عليّ كلما تأملت في انتاجنا الأدبي . وكان الجواب يتقضي دراسة دقيقة لكل الامكانيات الفكرية منذ بدأنا نتحرر من رواسب الماضي في المقالة والقصة ، ونستشرف عهدًا جديدًا للشعر والدراسة والمسرحية . ولكن هذه الدراسة الدقيقة لم تتح لي ، بسبب العراقيل الكثيرة ، التي أهمها : بعدنا عن موطن الحركة الأدبية والفكرية ، وعدم توفر الوسائل من كتب ومجلات وآراء شخصية .

ولكي أكون صريحًا أحب أن أزيل من ذهن القارىء فكرة قد تخامره ، وهي أني أدرك مدى خيالية هذا الموضوع ، إذ كيف نتحدث عن النقد الأدبي في الجزائر ، بينما نحن لا نعترف أو لا نكاد نصدق أن عندنا أدبًا ناضجًا شق طريقه مع قافلة الأدب العربي المعاصر ، أو الأدب العالمي ؟! .

والحق ان صواب هذه الفكرة ظاهر إلى حد بعيد ، سيما إذا أُخذت على سطحيتها ، فالادب عندنا — كفنّ — ما يزال متخلفًا من حيث الكم والموضوع والاسلوب . فليس هناك — بالعربية — قصة توفرت لها شروط الإجادة في التقنية

---

* بحث نشر في مجلة « الآداب » اللبنانية عدد 9 ، سبتمبر 1960 .

والعلاج ، أو شعر تطور مع عواطف الناس وظروفهم ، ولا إنتاج مسرحي واكب المرحلة الراهنة من تاريخنا ، وعبّر عن مشاعرنا في الحب والكفاح . وبالتالي ليس هناك أدب متكامل يعيش مع مشاكلنا الذهنية والعاطفية ، فكيف بعد هذا نحاول الحديث عن النقد الأدبي ، بينما الادب والنقد صنوان يسند ويكمل أحدهما الآخر ؟

ولكن ما دمنا نعترف بوجود محاولات في الأدب ، فمن الحق أن نعترف كذلك بوجود محاولات أخرى في النقد . إنها مجرد محاولات تتلاءم مع المستوى الفني لانتاجنا الأدبي ، ولو اننا استعرضنا هذه المحاولات ، لوجدنا أنها قد مرت بعدة مراحل رئيسية نلخصها فيما يأتي :

المرحلة الأولى : تتمثل هذه المرحلة في الحملات التي كان يقوم بها بعض شيوخ الجزائر ، في أوائل هذا القرن،يدعون فيها إلى نبذ الجديد والتشكك في قيمته الفنية والموضوعية ، وإلى الأخذ بالقديم لا باعتباره نماذج خالدة ولكن باعتباره تراثًا قوميًا . ومن هنا يجب التمسك به في العودة إليه مهما كانت قيمته الجمالية . ولهذه المرحلة مبرراتها من الواقع الثقافي والسياسي آنذاك ، وإن كنا لا نريد التعرض لهذه المبررات الآن . وكان على رأس زعماء هذه المحاولات الشيوخ أبو القاسم الحفناوي وعبد القادر المجاوي والمولود بن الموهوب ومحمد بن أبي شنب ومحمود كحول ، وذلك في المحاضرات والدروس والندوات التي كانوا يلقونها في الثعالبية ونادي صالح باي ومدرسة الجزائر ، أو في الآراء التي كانوا يدلون بها في الصحافة المحلية والتوجيهات الشخصية لتلاميذهم ومريديهم .

المرحلة الثانية : وهي تظهر فيما كان يدرسه الشيخ عبد الحميد بن باديس لتلاميذه من طرائق في الادب وأساليبه ، من اللفظة الجزئية حتى البناء الكامل ، فقد كان للشيخ طريقة خاصة في تناول الحياة كلها ، تشهد له بالحذق والبراعة ، إذ كان يدعو تلاميذه والمنتفعين بثقافته إلى القديم والجديد معًا ، القديم في محاسنه ورزانته ، والجديد في طلاقته وتطوره ، وإذا كانت هذه الدعوة من الشيخ عامة ، تشمل أسلوب الاصلاح جميعًا ، فلقد كانت أوضح ما تكون فيما عالجه من وسائل الأدب لتلاميذه ولا سيما في دراسته للكامل والامالي وغيرهما .

المرحلة الثالثة : تأتي هذه المرحلة على يد الشيخ البشير الابراهيمي الذي كانت ثقافته الأدبية أوضح من زميله الشيخ باديس . وبينما كان الدرس المشافه الموجه أغلب على الأخير كان القلم واللسان أغلب على الشيخ الابراهيمي . وقد أعطته هذه الميزة ميلًا خاصًا للنقد والتوجيه فاتخذ من الصحافة ، ولا سيما جريدة البصائر ، منبر القيادة للجيل الجديد في الأدب ، سواء فيما كان ينشره من نماذج تثير الاعجاب وتدعو إلى الاحتذاء ، أو فيما كانت تنشره الجريدة ــ بارشاده ــ من شروط للادباء والكتاب الذين يرغبون أن يساهموا في التحرير . وكانت صلة الشيخ الابراهيمي أكثر بالجيل الذي تخرج علميًا على الشيخ باديس ، فقد كان هؤلاء يتحدثون إليه في شؤون الأدب قديمًا وحديثًا ، وينشدون الشعر بين يديه ، وكان الشيخ ينتقدهم بشدة ويشير إلى مواطن الضعف وقد يستحث المجتهدين على الاستزادة أو يضع أمامهم النماذج الرائعة من الشعر أو النثر القديم والمعاصر . وقد زاد الأدباء إغراء بالشيخ واعجابًا بآرائه في الأدب ما عرف عنه من كثرة الحفظ وما اشتهر به لسانه من طلاقة وبيان .

المرحلة الرابعة : يعتبر الجيل الذي تخرج علميًا على الشيخ باديس وأدبيًا على الشيخ الابراهيمي زعيمًا لهذه المرحلة التي تبتدىء بعد الحرب العالمية الثانية . على أن هذه المرحلة بالرغم من صلتها الوثيقة بالقديم قد أخذت تتحرر في أسلوبها وموضوعها كما أخذت تطبق بعض المذاهب النقدية التي أكتسبتها من ثقافتها المعاصرة ؛ فظهر المذهب الواقعي واضحًا في إنتاج أحمد رضا حوحو والمذهب السلوكي في أحمد بن ذياب واحتفظ الشعر ببعض خصائص الرومانتيكية الصارخة كالثورة والشكوى . ومن أبرز أصحاب هذه المدرسة حمزة بوكوشة وحوحو وذياب وعبد الوهاب بن منصور ومولود الطياب الذي كان أكثر هؤلاء نقدًا وأقربهم إلى الموضوعية الهادئة مع أنه لم يكن من مدرسة الشيخ الابراهيمي بل كان ينشر نقده وابحاثه في مجلة (هنا الجزائر) التي تصدر من هيئة الاذاعة المحلية .

هذه هي أهم المراحل في هذه المحاولات النقدية التي عرفتها الجزائر . ويحق لنا الآن أن نتساءل عن ميزات كل مرحلة ومدى نجاحها في تطبيق المذاهب الحديثة ــ والاستفادة منها من حيث القدم والجدة ومن حيث الموضوعات التي تطرقت اليها .

اتفقت المرحلتان الأولى والثانية في النزوع إلى القديم . وقد تمسكت الأولى خاصة بالالفاظ القديمة والقوالب العتيقة في نسج المقالة أو صياغة القصيدة . على ان الثانية حاولت أن تجدد في النثر فنجحت إلى حد كبير إذ تطور في عهدها وأصبح يواكب أحدث الأساليب العربية الناجحة في ذلك الحين . اما الشعر فقد استمر على نفس النغم حتى أنه كان يحاكي الأساليب القديمة محاكاة عمياء . يظهر ذلك فيما كان يطلبه الشيخ باديس من تلاميذه من تشطير أبيات أو تخميسها أو احتذائها في الوزن والقافية والموضوع ثم ينقدهم على هذا الأساس .

ولعل لهاتين المرحلتين عذرهما في أن لكل منهما مهمة أخرى غير الأدب والنقد ، إذ كانت الأولى مقيدة إلى الماضي بما تحمله من عقائد دينية غير متطورة وما تلقته من ثقافة يغلب عليها جهد الأفراد أكثر من المجهود المنظم والتوجيه الصحيح . أما الثانية فقد كانت متقدمة أكثر من حيث الواقع وكانت شعاراتها تلزمها الجمع بين القديم والجديد في كل شيء حتى في الأدب ولكنها فيما يبدو لم تستطع أن تحطم كل قيود الماضي .

وتبدو الجرأة واضحة في المرحلة الثالثة إذ وجدت الطريق معبدة من السابق ، وبذلك أصبحت آراؤها مقبولة وحملاتها موفقة إلى حد كبير . ويظهر ذلك في اتجاه الشعر نحو البساطة والواقعية في الأسلوب والاداء كما يظهر في اتجاه النثر إلى تحرير العبارة واختصار الجملة والاقتراب من ذهن القارىء بتناول موضوعات تتصل بحياته ومشاكله وآماله .

فقد كان الشيخ الابراهيمي يستمع إلى شعراء هذه الفترة لينقدها ويعلق عليها ويحبذ شعر هذا ويطعن في شعر ذاك . كما كان يناقش الكتاب — بحكم رئاسته لتحرير البصائر — ويضع لهم الشروط الضيقة حين يريدون النشر أو يطمحون إلى الكتابة . ونحن قد لا نتفق مع الشيخ الابراهيمي في الطريقة التي حمل الشعراء والكتاب على تقليدها ، ولكننا هنا نتحدث عن الواقع التاريخي ، وبالتالي لن نتعرض بالمناقشة لهذه الطريقة الآن . ويكفي أن نعتبرها مرحلة تاريخية من حياتنا الأدبية ، مهدت لمرحلة أخرى كانت ذات فضل كبير في وضع حركة النقد الأدبي وتطويرها .

أما في المرحلة الرابعة ، فقد اكتسبنا تجربة أخصب بفضل التطور الذي اتسمت به حركة الأدب من ناحية ، ثم بفضل الضغط الذي حاول أن يوجه الأدب وجهة خاصة ، وإن لم يبلغ درجة النقد النزيه الناضج المتطور . ففي هذه المرحلة دخلنا باب القصة العربية وحاولنا كتابة المسرحية الناجحة ، وظهر عندنا أدب الخاطرة ، وتطورت في كتابتنا دراسة الشخصيات ، وتلاقحت أفكارنا بمعطيات جديدة من الشرق العربي ومن أوروبا . فأفدنا من كل ذلك وحملنا كتابنا وشعراءنا عليه . ولكننا لم ننجح النجاح كله إلا مع الكتّاب . أما الشعراء فقد بقوا على ما هم عليه ، إذ لم يظهر عندنا في هذه المرحلة ناقد شعري متمكن يخالف نقاد المراحل السابقة في العقيدة والمنهج . وبذلك ركدت حركة الشعر إلى حين . أما الكتاب فقد كانت الحملة عليهم قوية من أحمد رضا حوحو وحمزة بوكوشة وعبد الوهاب بن منصور وغيرهم .

هذه لمحة خاطفة عن محاولات النقد الأدبي في الجزائر وأثرها في توجيه حركة الأدب والفكر ، ولعلنا نعود اليها بالتفصيل في مناسبة أخرى .

رضـــا حـــوحـــو
ونضال الكلمة *

الحزن ، والألم ، والحرمان ، والاضطهاد ، والقيد تكاد لا تذكر إزاء عشرات ومئات الضحايا الذين تقربت بهم الجزائر في نضالها إلى الحرية والخلاص . والشهداء الابطال من الشعب والجيش الذين سقطوا فداء القضية العربية أكثر من الارقام وأكبر من الذاكرة . وبين هؤلاء شهيد لن تنساه الجزائر ، ولن تغفله القضية العربية ، لأنه استطاع أن يجد له مكانًا بارزًا في الذاكرة الوطنية ، وأن يكون رقمًا كبيرًا واضحًا في قائمة الشهداء . ذلك هو أحمد رضا حوحو فقيد الأدب العربي في الجزائر الذي اغتاله الاستعمار انتقامًا بمدينة قسنطينة في شهر مارس عام 1956 .

يحق للباحث في شخصية هذا الفقيد الأديب أن يتساءل : أولًا عن حياته ، وثانيًا عن دوره في حركة الأدب ، وثالثًا عن ميزات فنه ، ولذلك فمهمة هذا البحث هي محاولة الاجابة على هذه النقاط الثلاث وتوضيحها .

أولا ــ حياته : لم يعمر رضا حوحو أكثر من خمسة وأربعين ربيعًا عاشها في كفاح مع الحياة شأن أكثر الجزائريين ، وشأن الموهوبين الذين لا يرضون بالواقع

---

(1) كتب هذا البحث في مارس 1960 والقي كمحاضرة في نادي المغرب العربي بالقاهرة ، ثم نشر في مجلة (الآداب) العدد 12 لعام 1960 .

لأنهم مصابون بحمى التطوير والتجديد . فقد ولد سنة 1911 في بلدة (سيدي عقبة) المشهورة بضريح القائد العربي الكبير عقبة بن نافع والتي تعد مزارًا تزدحم فيه أفواج المواطنين الجزائريين الذين يفدون على هذا الضريح يتقربون ويتفرجون ، كما يؤمها السواح الأجانب لمشاهدة معالم البلدة والاطلاع على عادات الشعب وتقاليده . ولعل هذه الظاهرة قد أثرت على اتجاه حوحو فجعلته يميل إلى الأدب الاجتماعي ونقد العادات ومن أهمها الطرقية والزيارات والاولياء ، ونحو ذلك ، حتى لقد بدأ عمله الأدبي بمقال نشره في مجلة (الرابطة العربية) التي كانت تصدر بمصر تحت عنوان « الطرقية في خدمة الاستعمار » . وقد تعلم العربية في هذه البلدة على الطريقة المألوفة في زمانه ، ثم انتقل إلى سكيكدة حيث درس الفرنسية في مدرستها وأجبرته الظروف العائلية على مغادرة الجزائر إلى الحجاز حيث أتم دراسته العربية على أساتذة لعل بعضهم كان من المغرب العربي .

ونلاحظ أنه في هذه الاثناء قد تنقل بين عدة أجواء واطلع على أشياء كثيرة قلما تتاح لغيره ؛ فمن حيث المناخ انتقل من بيئة صحراوية إلى بيئة جبلية ، ثم الى بيئة صحراوية مرة ثانية . ومن ناحية التعليم جمع بين التعليم العربي العتيق وبين التعليم الفرنسي الحديث . ومن جهة الثقافة العامة انتقل من الجزائر التي تسيطر عليها الثقافة الفرنسية إلى مصر فالحجاز حيث تسود الثقافة العربية على اختلاف في درجة التقدم والنضج ، كما نلاحظ أنه أثناء مروره بمصر وإقامته في الحجاز — حوالي 8 سنوات — كانت تيارات التجديد في الأدب والصراع بين القديم والجديد في الشرق على أشدها ، وقد ساهم هو في هذه المعركة من وجه آخر حيث كان إلى جانب عمله كموظف في إدارة البريد بالسعودية يشترك في تحرير مجلة (المنهل) بقصصه ، ومقالاته ، ثم بترجماته عن الأدب الفرنسي الذي كان يعجب ببعض نوابغه ويخصهم بالذكر والاستشهاد .

وقضى حوحو في السعودية أعوام الحرب العالمية الثانية وأتيح له أن يزور روسيا وفرنسا وإيطاليا وتشيكوسلوفاكيا ، ثم عاد إلى الجزائر فادار احدى المدارس الاهلية كما يسميها ثم انتهى به المطاف إلى معهد عبد الحميد بن باديس حيث تولى به شؤون السكرتارية وتفرغ للصحافة والأدب والمساهمة في ابراز الشخصية العربية

للجزائر من خلال التجربة الفنية ، إلى أن قتل غدرًا وانتقاما برصاص الاستعمار في مارس 1956 .

ومن خلال هذه النافذة الصغيرة عن حياته نرى أنها حياة خصبة جديرة بالدراسة والوقوف وانها غنية بالتجارب والمشاهدات والنزعات ، فثماني سنوات خارج الجزائر أتاحت له أن يزور بلادًا اشتراكية وأخرى ديمقراطية ويختلف إلى بلاد عربية ليست غريبة عن وجهه ودمه ، إلى بلاد أجنبية لا يربطه بها نسب ولا ثقافة ، ويسمع ويتعرف على آثار بوشكين وتشيخوف في ورسيا ، وبراندلو وكروتشي في ايطاليا ، إلى جانب دراسته عن هيجو وأندريه جيد في فرنسا .

وقد حفزه كل ما رآه وعبأ روحه وايمانه بمستقبل الثقافة العربية في الجزائر وحدد معالم شخصيته العربية بين زملائه الجزائريين من ناحية ثم بين الادباء الآخرين من ناحية ثانية . وهذا ما نحاول أن نبينه في النقطة التالية من هذا البحث .

ثانيا ــ دوره في حركة الأدب : ولكن قبل أن نتحدث عن دوره في الحركة الأدبية يجب أن نعطي صورة وجيزة عن تطور النثر العربي في الجزائر حتى وصل إلى مستواه الحالي . ذلك ان الدراسة المستأنية لتاريخ الأدب تثبت أن النثر قد اجتاز عدة مراحل قبل أن تنضج عبارته وتتحرر من الرواسب التقليدية . وانما أقول النثر بعامة لكي أقحم في هذه الحركة جميع الصور النثرية بحيث تشمل ألوان الأدب المختلفة كالقصة والمقالة والرواية ولكي تشمل أيضًا النثر السياسي والاجتماعي والديني .

وقد وجدت بعد بحث طويل في أساليب الكتابة العربية في الجزائر منذ أوائل القرن الحالي أن النثر قد مر بثلاث مراحل رئيسية :

المرحلة الاولى : مرحلة التحلص من أسلوب الماضي المعروف بكثرة الترادف والسجع والاستشهاد بالشعر وبالعبارات المأثورة في ثنايا الكتابة والعناية بالديباجة والقشرة الخارجية للتعبير.

وننتقل بسرعة الى **المرحلة** الثانية لتطور النثر في الجزائر فنجد عنصر التوفيق قد لعب دورًا كبيرًا ، فقد أتيح للجزائر بعد الحرب العالمية الأولى أن تنشيء الصحافة

الوطنية وأن تهتم بمشاكل الأدب والفكر وأن تخرج بقضية العروبة في الجزائر إلى مستواها السياسي محاولة بذلك ربط الحاضر بالماضي والتجاوب مع الأقطار العربية في مشاكلها وسيرها . وقد حشدت (المنتقد) ثم (البصائر) في سلسلتها الأولى كل الاقلام الوطنية الأسيرة فأطلقتها لتعبر عن مختلف النزعات الاجتماعية والسياسية والفكرية ، وتبعًا لنزعة التحرر تخلص النثر من أكثر المحتويات القديمة ونبذ الطلاء ليعبر عن الحقائق في أسلوب واضح سريع الحركة قصير الفاصلة ، مباشر المعنى ، وظهرت في الجزائر لأول مرة شخصيات متميزة وأقلام تحمل طابع الاصالة والعمق .

وبفضل هذا الرعيل تقدمت حركة النثر أشواطًا بعيدة واجتازت التخلص إلى الانطلاق والتعبير عن خلجات النفس والشعور الاجتماعي ، والفكرة الوطنية في أسلوب صحفي رزين ويجب أن نلاحظ على هذه المرحلة ان النثر الأدبي المحض فيها كان ضئيلًا أو معدوما ، ونحن لا نعجب من هذا بعد أن عرفنا أنها مرحلة انطلاق شامل في السياسة والعقلية والاصلاح . والأدب أحفل الآثار بالتركيز والعمق والبعد عن الصخب .

أما **المرحلة الثالثة** فهي التركيز والتخطيط وتبدأ بانتهاء الحرب العالمية الثانية ؛ ويلاحظ على هذه المرحلة أنها أكثر احتفاء وإنتاجًا للأدب المحض ، ففيها ظهرت بذور القصة العربية وظهرت المسرحيات والروايات النثرية وتقدمت المقالة فأصبحت تتميز بطابعها الفني المعروف ... كما ظهر هذا الاسلوب النثري الذي يسمى الخاطرة أو الصورة الادبية في شكل خفيف جذاب .

وإذا شئنا الدقة في تحديد هذه المراحل الثلاث نجد المرحلة الأولى تنتهي بظهور (الشهاب) سنة 1925 ، والمرحلة الثانية تنتهي بظهور البصائر الجديدة سنة 1947 لتفسح المجال للمرحلة الثالثة التي كانت أغنى تجربة وأكثر انطلاقًا وأعمق مفهومًا .

نعرف أن حوحو سافر إلى الحجاز سنة 1937 أي في منتصف المرحلة الثانية لتطوير النثر . وكان عمره إذاك حوالي 26 سنة وهي سن ناضجة تتيح له أن يحمل كثيرًا من الذكريات الوطنية والاصلاحية عن الأحداث التي تسود بلاده ، وكانت

القيادة في الجزائر قد ظهرت في صورتها المتكاملة تقريبًا تحمل معها كافة الاتجاهات السياسية من يسارية ومعتدلة وموالية .

ونحن نذكر هذا لنبين أن حوحو لم يجد شيئًا جديدًا في القيادة حين عاد إلى الجزائر . نفس الاتجاهات والشعارات بل ربما نفس الاشخاص . وكل ما طرأ من جديد هو ازدياد الوعي الجماهيري وتبلور المفاهيم الوطنية والشك في أهلية القيادة بعد انتهاء الحرب وحوادث 8 مايو المروعة . وكذلك نذكر هذا النثر لنزداد تفهما لموقف حوحو من القضية حين يهاجم السياسة والنواب والزعامة الفردية ويؤمن بالشعب من خلال مشاكله الاقتصادية والثقافية والنفسية لا من خلال الأحزاب والطوائف .

وقد انتفع حوحو بتجربته في الشرق العربي حيث التقى بالمنابع الأولى للثقافة العربية ووقف على أهم المشاكل التي تشغل بال الأدباء آنذاك والمعارك التي كانت تنشب بين حين وآخر لنصرة هذا الاتجاه الأدبي أو ذاك . وعندما رجع إلى الجزائر في سنة 1945 وجد شيوخ المرحلة الثانية قد مات بعضهم وانزوى الاخرون ووجد جيلا جديدا يبحث عن نفسه عقب الحرب وعقب التجارب السياسية المختلفة للحركة الوطنية فبدأ يكتب . ومن عجب أن تصدر أول قصة له سنة 1947 بعنوان (غادة أم القرى) وهي قصة اجتماعية تجري حوادثها على أرض الحجاز . وقد أهداها إلى المرأة الجزائرية بهذه العبارة « إلى تلك التي تعيش محرومة من نعم الحب . من نعم العلم ... من نعم الحرية ... إلى تلك المخلوقة البائسة المهملة في هذا الوجود ... إلى المرأة الجزائرية أقدم هذه القصة تعزية وسلوى » .

ولكن عجبنا يزول حين نعرف أنه كتب هذه القصة أثناء وجوده بالحجاز ، وأنه لاحظ أوجه شبه كثيرة بين المرأة الحجازية والمرأة الجزائرية فاستحسن نشرها في أرض ليست غريبة عن بيئة القصة . وقد هاجمه بعض الرجعيين بدعوى أنه يدعو إلى تحرير المرأة والخروج على التقاليد ولكنه صمد وكتب عدة قصص أخرى ومقالات يدافع فيها عن حق المرأة في الحياة واختيار الزوج والثقافة . نشر بعضها في كتابه : (مع حمار الحكيم) سنة 1953 و(صاحبة الوحي) ، و(نماذج بشرية) .

وقد أمد حوحو الصحافة العربية في الجزائر بكثير من المقالات الاجتماعية والنقدية والقصص الخفيفة والصور الصادقة عن مختلف أوجه النشاط في المجتمع الجزائري .

وساهم بنصيب وافر في حركة الترجمة والتأليف التي كانت تفتقر إلى هاتين الظاهرتين كما خدم الصحافة بأسلوبه الخفيف وحواره الساخر ومعالجته للقضايا الاجتماعية والأدبية بلون جديد هو لون القصة والصورة . وكلاهما كان غير موجود قبل حوحو كما سبقت الاشارة ؛ ولذلك نعده واضع البذرة الأولى للقصة العربية في الجزائر . صحيح أن قصصه تعوزها التقنية الفنية وتحديد الأبعاد ومراعاة الأصول . ولكن ما فيها من شخصيات حية وأساليب الحكاية والحوار قد جعلت منها بذورًا صالحة لكي يبني عليها الجيل الحاضر معالم القصة المتكاملة .

كذلك أسهم حوحو في الأدب المسرحي فقدم إلى الاذاعة والمسرح العربي عدة روايات فكاهية بالفصحى والعامية مقتبسة أو موضوعة ، وجميعها كانت تقدم إلى الجمهور في أسلوب ساخر ونقد لاذع لاوضاعنا الاجتماعية والسياسية . كما خدم المسرح بتشجيع الممثلين ونقده لما تقدمه بعض الفرق من أعمال أدبية كما فعل حين قدم رواية (الصحراء) التي تمثل كفاح ليبيا من أجل الاستقلال .

والمعروف عن حوحو أنه كان إلى جانب أعماله الأدبية والصحفية فنانًا مرهف الاحساس يحب الموسيقى ويعزف على بعض آلاتها ويحضر حفلاتها ، بل كان يدير (جمعية المزهر القسنطيني للموسيقى والتمثيل) . وقد جاء في أحد تقريراتها الأدبية انها تأسست سنة 1948 وان المؤسسين لها لم يتجاوزوا عدد أصابع اليد ولكنهم تغلبوا على جميع العراقيل المثبطة حتى أمكن للجمعية أن تحتل مكانة مرموقة في الوسط الفني وحصلت بجهود أفرادها على سمعة طيبة وأدت خدمات **جليلة للفن (1)** .

ورغم ثورته على الواقع الأدبي وعدم اقتناعه بقيمة الانتاج الفنية وشعوره بنقص التقدير وكثرة المثبطين فقد أعلن قبل اغتياله بشهر واحد عن مشروع ثقافي كبير

---

(1) البصائر عدد 244 عام 1953

لو أتيح له أن يخرج إلى الوجود لأدى به خدمة عظيمة للثقافة العربية في الجزائر الفقيرة إلى المشاريع على الاطلاق ومشاريع النشر على الخصوص . (انظر البصائر «حاضر الثقافة»). فاذا عرفنا أنه شخص واقعي لا يؤمن بالتشجيع وبالوعود وانه يفعل ما يقول عرفنا أنه كان جادا في مشروعه وأنه قد هيأ له الأسباب الكفيلة بانجاحه واخراجه إلى الشمس والهواء لينافس به المشاريع الثقافية الكبيرة في البلاد العربية. ولكن الاستعمار أبى عليه ذلك وعجل بالقضاء عليه، ولكنا نرجو أن يخيب ظن الاستعمار في القضاء على مشروعه الوطني.

كان حوحو يكره النقد ولا يحب النقاد ، يشكوهم ويتأفف منهم ويراهم ثرثارين كالعجائز ، ومع ذلك كان يجاملهم ويتقي شرهم ، يغمزهم أحيانًا في حواره مع حماره الحكيم وقلما يهاجمهم بالصراحة . اشترك في نقد كتابه (مع حمار الحكيم) عبد الوهاب بن منصور ومحمد علي دبوز في (البصائر) ، ومولود الطياب في مجلة (هنا الجزائر) وقد كنت في جملة هؤلاء النقاد . ولكن حوحو في رده تخلص من كل واحد بطريقته الخاصة فقال عن ابن منصور انه لا يزن أقواله بميزان دقيق . وقال عن مولود الطياب انه مغرم بألفاظ السطحية والعمق وانه لا يفرق بين تعريف الأدب وتعريف النحو والفقه . وكتب عني أو أوحى إلى من كتب عني أنني مازلت لا أعرف شيئًا من النقد واني صدى لما أقرأ وأسمع . ولكنه لم يلبث أن جمعهم في مشرحة واحدة في مقال عنوانه : « آه من النقاد » .

كان حوحو ثائرًا على الأدب المائع والأسلوب الركيك ، يدعو إلى أدب عربي محكم البناء ، جزيل العبارة . وكان يقول اننا لا نرضى لادبنا أن يذهب به هؤلاء الادباء العصريون الذين لا يحسنون إلا شقشقة الألفاظ ومضغ الكلام الضيق . وقد كتب عنهم عدة مرات وأشار اليهم في كثير من مقالاته ومحاوراته النقدية . وكان آخر ما كتب عنهم مقالا بعنوان : « إلى أين تذهبون بالأدب يا فقاقيع الأدب » ؟ .

هاجمهم فيه في أسلوبهم ، وحركتهم ، وأذواقهم ، وربط بين تخنث أسلوبهم الأدبي وتخنث شخصياتهم . ثم أورد نموذجًا لما يسمونه أدبًا الفه من عنده ، وأخيرًا هددهم فقال : « اننا بالمرصاد وسنقضي على بذوره قبل استفحالها ولا نقبل في

شمالنا الأفريقي إلا أدبًا عربيًا مبينًا ، أخذ من الماضي متانته ومن الحاضر سلاسته ، وليذهب الرصيد الفني والشعورية الفارغة وفقاقيع الأدب إلى الجحيم .

ويبدو أن رضا حوحو في ثورته على أدب (السوينق) كما يسميه لم يكن يعني أدبيًا معينًا ولا أسلوبًا بذاته ، وإنما تناول ظاهرة كاملة . وقد حاولت أن أجد هذه الظاهرة في أدبنا العربي بالجزائر ، ولكن لم أعثر على ما يبرر هذا الهجوم . فالمدرسة الأدبية السائدة قبل الثورة هي ما يمكن أن نسميه (مدرسة البصائر) وهي المرحلة الثالثة من تقسيمنا السابق للنثر . وهي مدرسة محافظة على أسلوبها العربي الرزين محتفية بديباجتها وبيانها . ولم يكن حوحو إلا أبرز الأدباء المنتجين في هذه الفترة . أما من ناحية الأسلوب فاننا نجد أحمد بن ذياب مثلًا أجمل منه لفظًا وأحلى عبارة . ونجد عبد الوهاب بن منصور يعتني بالأسلوب القديم حتى لقد كان يسجع في كثير من الأحيان ويكثر من الترادف والتضمين .

ونحسب أن الحديث قد طال عن النقطة الثانية من بحثنا وهي دور حوحو في الحركة الأدبية ، ولكن ، هناك ملاحظة جديرة بالتسجيل في هذه النقطة ، وهي أن حوحو قد كتب عدة مقالات نقدية لشخصيات جزائرية تحت عنوان (في الميزان) نشرها في الأعوام الأخيرة . وقد كان يمكن أن نعد هذه المقالات وغيرها من آثاره الأدبية أكبر مساهمة منه في تطوير حركة النقد الأدبي بالجزائر ، لولا ما في أحكامه من تسرع وارتجال ، ولولا أنها كانت تعرض أشخاصًا لا آثارًا أدبية تخضع لمقاييس النقد وتطبق نظرياته .

ثالثًا ــ ميزات فنه :

هذا هو دور حوحو الأدبي والفني ؛ فما هي ميزات أدبه وفنه ، وما خصائص أسلوبه وآثاره ؟ هذه هي محاولة الاجابة عن النقطة الثالثة والأخيرة من هذا البحث .

لفت نظري في أدب حوحو ظاهرتان هامتان : الأولى السخرية والثانية براعة الحوار . **فالسخرية** ظاهرة شائعة في جميع آثاره حتى الجاد منها يلتجىء اليها للتعبير عن خلجات نفسه وآرائه في شؤون الحياة . وليس غريبًا أن يعمد حوحو إلى هذا الأسلوب من الكتابة في مجتمع كالمجتمع الجزائري تسوده تقاليد معينة في

المرأة ورجال الدين واستخدام وسائل الحضارة ، وتحكمه سياسة معينة قائمة على العنف والارهاب في كل شيء . وعندي أن حوحو لو أمتهن الرسم لكان أبرع الرسامين في فن الكاريكاتير بالذات والرسم كما يقدم اليك شخصية حية لها أبعادها ومفهومها قد يقدم اليك فكرة أو نظرية أو موضوعًا أو منظرًا . وكلها رسوم لها دلالتها في التأثير والتشويق أو الدعابة والنقد .

وقد قدم لنا حوحو عدة شخصيات انتزعها من صميم المجتمع الجزائري فيها الشيخ الذي يتاجر بالدين وينافق بعمامته وسبحته بينما يرتكب الفواحش والآثام. وفيها النائب الذي اشترى أصوات الناخبين ثم جلس على الكرسي المذهب وعلى صدره نياشين المستعمر وليس يملك إلا حركة رأسه علامة للتأييد والموافقة على جميع القرارات حتى ولو كان فيها زيادة القيود والنكبات على شعبه . وفيها الفتاة التي تعاني كبت المجتمع ثم تقع في حبائل الشباب الذي يسلبها شرفها ويلفظها طريدة لا تفكر إلا في الانتحار . وهناك إلى جانب الشخصيات، النظريات والأفكار الأدبية والاجتماعية والسياسية . ولكن المهم في السخرية ليس الشخصيات ولا الأفكار ، بل طريقة العرض أو التقديم . فكيف يعرض حوحو وكيف يقدم شخصياته ؟ إنه يبدأ فيرسم الخطوط العامة للشخص الذي حدثك عنه : أكتافه ، وجهه ، عيناه ، قامته . ثم ينتقل إلى الميزات الدقيقة كعادته ، وطبعه ، وأخيرًا يتحدث عن أفكاره وآرائه .

وقد سلك طريقة الرسم الساخر والكاريكاتير حتى مع الأشخاص الواقعيين الذين قدمهم في ميزانه ، إذ يسوق لكل منهم جملة عامة تلخص سيرته وذوقه وأسلوبه وملامحه ، تمامًا كما يفعل الرسامون حين يضعون تحت رسومهم عبارة تفسر الحركة أو تجمل الموقف أو تشير إلى هدف الصورة . هذه هي ظاهرة السخرية التي سادت في أدب حوحو وهي ظاهرة جديرة بعناية أكبر ، وحسبي هنا أن الفت اليها الأنظار .

أما ظاهرة الحوار فهي كذلك من أبرز ما امتازت به أعماله الأدبية ، وقد برع فيه لدرجة كبيرة لم أعرف أديبًا جزائريًا وصل إلى مستواه فيه . استخدم حوحو الحوار في القصة والمسرحية وفي الموضوعات المختلفة . وكان حواره يمتاز بالسرعة

والجدة والنكتة مما جعله خفيفًا على الأذن قريبًا إلى القلب . وقد ساعدته شخصية الحمار الذي أجرى على لسانه مناقشات كثيرة للمشاكل الاجتماعية والوطنية — ساعدته هذه الشخصية على طرافة الحوار وخفته .

وهناك عدة ظواهر أخرى تسود أدب حوحو ولكن أغلبها ثانوي إذا قيس بالظاهرتين السابقتين . ولن نكون متحاملين إذا قلنا ان باع حوحو في اللغة العربية لم يكن طويلا ، ولكن ثقافته الفرنسية ، واطلاعه الواسع ، وروحه المرهفة ، وأحساسه بمسؤولية الأديب الملتزم ... كل ذلك جعله شخصية متميزة في الأدب الجزائري الحديث .

وبعد : فإن لحوحو جوانب كثيرة تفتقر إلى الدرس والعناية ، وله شخصية فذة جديرة بالاطلاع والتحديد ، وله آثار أدبية أخرى كان يعد بإنجازها وإخراجها وليس يكفيه بحث يلقى في ساعة من الزمن ثم ينسى وتنسى معه آثاره .

وقد نال حوحو شرف الجهاد في سبيل تعريب الجزائر والسمو بأدبها إلى مصاف الأدب العربي الحديث كما نال شرف الاستشهاد في سبيل القضية التي ناضل من أجلها بأدبه وأعصابه وقلمه . وان الوفاء له يقتضينا أن نعمل على جمع آثاره وطبعها من جديد ، وأن نبعث مشروعه الثقافي الكبير ونحاول تحقيقه . وبذلك نكون قد اعترفنا له ببعض الفضل ، وخدمنا حركة الأدب العربي في الجزائر التي هي جزء هام من القضية الوطنية الكبرى . رحم الله حوحو فقد كان مثال الأديب الذي عاش نظيفًا ومات نظيفًا .

كتّاب الجزائر بالفرنسية

(محمد ديب ، كاتب ياسين ، ادريس الشرايبي)

أما الجزء الباقي من هذا البحث (1) فسوف نخصصه لغير الأوروبيين من كتاب افريقيا الشمالية ، مع التركيز على أدريس الشرايبي ، ومحمد ديب ، وكاتب ياسين، فهؤلاء الكتاب لهم تراث أدبي باللسان الفرنسي يستدعي تمحيصًا أكثر . ولكن قبل الخوض في أعمالهم الأدبية لا بد من شرح الخصائص العامة التي تطبع أدب أفريقيا الشمالية . ولا شك أن كثيرًا من هذه الخصائص يوجد في أدب كتاب افريقيا الشمالية المنحدرين من أصل فرنسي أيضًا .

خصائص أدب افريقيا الشمالية بالفرنسية :

من الخصائص المشتركة بين أدباء افريقيا الشمالية ما يمكن أن يسمى باتجاههم الأمريكي . ان تأثير القصة الأمريكية على مختلف الآداب العالمية قد كتب عنه الكثيرون . فلا غرابة حينئذ ، أن يطلق الكاتب الفرنسي كلود ماني على الفترة التى

---

(1) كتب هذا البحث بالانكليزية الاستاذ جورج ج. جوايو في ثلاثة أجزاء تحت عنوان ادريس الشرايبي ، ومحمد ديب ، وكاتب ياسين ، وأدب افريقيا الشمالية الأهلي ، ونشره في مجلة (يال للدراسات الفرنسية) عدد صيف 1959 ، ص 30 — 40 خصص الجزء الأول من البحث للكتاب الفرنسيين المولودين بافريقيا الشمالية أمثال البير كامو وايمانويل روبلس وجول روى . وقد اكتفيت هنا بترجمة الجزء الثاني من البحث وهو الخاص بالكتاب العرب ، مع ملاحظة أن ادريس الشرايبي ، حسب علمي مغربي الأصل .

نعيش فيها « عصر القصة الامريكية » ، ولكن هذا التأثير يظهر بوضوح أكثر في افريقيا الشمالية حيث أن الأدب الذي نحن بصدد دراسته كان يتطور في الوقت الذي كان فيه الأدب الأمريكي محل اعتراف العالم . وعلاوة على ذلك فان افريقيا الشمالية قد وقعت تحت تأثير الأفكار والثقافة الأمريكية خلال الحرب العالمية الثانية . ولكن بالرغم من ذلك فانه من الممكن أن نعتبر قضيةهذا التأثير مبالغًا فيها . إن الطابع الأمريكي في أدب افريقيا الشمالية يظهر في التشابه الكبير بين الظروف والبيئة التي أنتجت الأدب القومي في كل من امريكا وافريقيا الشمالية .

وفي الحقيقة ان كتاب افريقيا الشمالية أقرب إلى أسس الحياة ومشاكلها اليومية من زملائهم الفرنسيين . فهم في الواقع يشبهون الكتاب الامريكيين إلى حد كبير من هذه الناحية ، حيث أنهم لم يمارسوا الأدب إلا بعد التجارب التي اقتنوها في مختلف الحرف ، لذلك جاءت موضوعاتهم الأدبية تعبر عن خبرة شخصية بالمشاكل اليومية . وهكذا نجد كاتب ياسين ، مثلًا ، قد احترف الصحافة والعمل في الموانى والزراعة قبل أن يمارس الأدب . أما محمد ديب فقد اشتغل محاسبًا ونساجًا ومعلما وصحفيًا قبل أن يدخل ميدان الأدب.ومن المهم أن نلاحظ أنهم جميعًا قد مارسوا حرفة التعليم ، وهي مهنة ما زال يشغلها الكثير منهم إلى اليوم . أما الصحافة فقد منحتهم الفرص لكي يروا ويشعرزا بالعالم حولهم .

ورغم أنهم جميعًا قد تدربوا في مدرسة الحياة ، فانهم لم يستطيعوا الهرب من عذاب وعزلة الانسان المعاصر . كما أنهم بالطبع قد وقعوا تحت تأثير كبير من جانب مذهب القدرية الاسلامي . غير أن كتاباتهم تكشف عن حظ وافر من التفاؤل المعتمدين فيه على ثقتهم في الطبيعة الانسانية وعقيدتهم في امكانية اصلاح الانسان . ولذلك نجدهم يعتنون عناية خاصة بموضوعي الشرف والاحترام في أعمالهم الأدبية . إن هذه الطريقة تشهد على أن يقظة أبطال قصصهم لفكرة احترام الانسان لا تأتي إلا بعد بطء وألم .

ان كتاب افريقيا الشمالية يتخذون بصفة عامة ، التقنية الحديثة لكتابة القصة . وهذه التقنية هي التي عرف بها كتاب « الجيل الضائع » مثل طريقة عكس الوقت عند فولكنر ، والحركة التلقائية عند دوس باسوس ، وتدافع الحوار

عند كلوديل ، ونصاعة الأسلوب عند شتاينبيك ، والعين الراصدة عند هيمنغواي (1) ! وإذا اتخذنا الكتاب الأمريكيين المعاصرين مقياسًا ، فاننا نجد أن كتاب افريقيا الشمالية قد تمتعوا بحرية أكثر من زملائهم الفرنسيين في اختيار أنواع الأدب وموضوعاته وأسلوبه وتقنيته . ولذلك فقد كان متوقعًا منهم أن يمنحوا اهتمامًا خاصًا للقصة التي تعتبر النوع الأدبي الممتاز في القرن العشرين والوسيلة ذات الامكانيات الواسعة للتجربة .

هناك عدد من الموضوعات المشتركة التي يمكن أن يعثر عليها الباحث في كتابات افريقيا الشمالية . ومن ذلك الهجرة إلى فرنسا التي سببها فقر الجزائر رغم أنها بلد منتج ، والصراع الطبقي هناك سواء كان بين العرب أنفسهم أو بينهم وبين الأروبيين ، والنزاع الذي لا ينتهي بين القديم والحديث أو بين التقليد والتقدم . ومعظم هؤلاء الكتاب قد جربوا ذلك شخصيًا إثر عودتهم إلى وطنهم بعد الدراسة أو التنقل في فرنسا . ومن ذلك أخيرًا الخلافات العنصرية والدينية بين مختلف السلالات والتجمعات والعقائد التي تتعايش في افريقيا الشمالية . ومعظم هؤلاء الكتاب لهم خبرة بفرنسا حيث أقاموا في عدة مناسبات ، إما بحثًا عن العمل الذي لم يجدوه في بلادهم ، وإما مواصلة لدراستهم بعد اكتشافهم للثقافة الغربية في المدارس الفرنسية الموجودة في افريقيا الشمالية ، وإما خلال الخدمة العسكرية ، وإما أخيرًا خلال الحربين العالميتين اللتين ساهمتا بفعالية في تفتح افريقيا الشمالية للتأثيرات الاجنبية .

وفي كثير من الاحيان نجد أن هذه الرحلة إلى فرنسا (مهما كان هدفها) تشكل الأساس في المحاولة الأدبية الأولى لهؤلاء الكتاب . لذلك نجد أن أول عمل يكتبه أديب من افريقيا الشمالية هو عادة ترجمة شخصية يفصح فيها عن انتمائه الثنائي إلى عالمين مختلفين كما يعبر فيها عن ألمه من عدم استطاعته أن يجد مكانًا في أي من هذين العالمين (2) . فالكاتب باعتباره مجذوبًا نحو العالم الغربي الذي

---

(1) انظر هنري بير « القصة الفرنسية المعاصرة » نيويورك ، 1955 ص 275 .

(2) انظر مولود فرعون « الطرق الصاعدة » باريس 1957 ، والبير ميمي (تمثال الملح) باريس 1953 و« أغار » ـــ لنفس المؤلف ـــ باريس 1955 ، وادريس الشرايبي « الماضي البسيط » باريس 1954 .

اكتشفه في المدرسة ، سرعان ما يصبح واعيًا بأنه لن يستطيع أن يكون جزءًا كاملًا منه . وهو في نفس الوقت لا يستطيع العودة إلى تقاليده لأن « التغريب » قد جعله غير قادر على تقبل « جميع التقاليد والعادات والطبائع والتصورات التي تريد أن تسجنه في قيود لا تنفصم (1) » وهكذا ، نجد ادريس الشرايبي ومحمد ديب وكاتب ياسين يعبرون أصدق تعبير عن هذا الأدب في قوته وضعفه ، وفي موضوعاته وأشكاله . والثلاثة لهم مكانة خاصة في أدب افريقيا الشمالية المعاصرة .

محمد ديب :

ولد محمد ديب بتلمسان (الجزائر) عام 1920 ، وهو مؤلف الثلاثية المسماة « الجزائر » ومجموعة قصص قصيرة بعنوان : « في المقهى » ، وديب في ثلاثيته التي تذكرنا بقصة حون دوس باسوس « أمريكا » قد حاول أن يرسم لوحة ضخمة للجزائر عشية الحرب العالمية الثانية . فمن خلال عيني الفتى عمر ، الذي يعطي النموذج والوحدة للثلاثية بمغامراته ، يعرف القارىء العناء المادي والنفسي الذي عاشه الجزائريون ، كما يعرف سبب القلق الذي أشعل نار الثورة في الجزائر بعد قليل . والواقع أن بطل الثلاثية الحقيقي هو الجزائر نفسها ، تمامًا كما كانت أمريكا هي بطلة رواية دوس باسوس . كما أن اليقظة النفسية والعقلية والعاطفية البطيئة للبطل عمر ترمز إلى ميلاد ضمير جزائري متلهف على الاعتراف به ، مصرًا على الحصول على الاعتراف مهما كانت الوسائل .

ففي الجزء الأول من الثلاثية « الدار الكبيرة » الذي ظهر عام 1952 يعطي ديب وصفًا صارخًا لحالة الفقر المدقع الذي كانت تعانيه الطبقات العاملة في الجزائر التي وقعت في فخ المدينة ، ولكنها لم تقدر على أن تعيش محترمة لا أخلاقيًا ولا ماديًا . والثلاثية ، بلا شك تتبع طريقة الترجمة الشخصية بأمانة . فمغامرات عمر هي نفسها مغامرات ديب ، ولذلك فان كتابات ديب تعيد إلى الذهن رواية الطبقة العاملة التي ظهرت في أوائل القرن الحالي ، كما تسترجع بلا ريب ، رواية الاحتجاج الاجتماعي على طريقة باسوس وشتاينبيك .

(1) انظر مولود فرعون « الطرق الصاعدة » ص ، 127 .

وفي الجزء الثاني « الحريق » الذي ظهر عام 1954 ، نقل ديب فتاه البطل إلى الريف حيث أصبح شاهدًا على الفقر المادي والنفسي الذي كان يعانيه الفلاحون الجزائريون . وقد اكتشف البطل مرة أخرى أن مواطنيه لم يكونوا أسعد حالاً في الريف . وفي نهاية هذا الجزء جعل ديب بطله يشاهد بصمت بداية « الحريق » الذي كان سينتشر بعد قليل خلال البلاد كلها . فالمؤلف يقول « ان النار قد بدأت ولن تتوقف أبدًا . انها سوف تستمر مشتعلة ببطء وبعماء إلى أن تعم السنتها الدموية البلاد كلها بحرارتها المدمرة » (1) .

أما في الجزء الأخير (المنسج) الذي ظهر عام 1957 ، فالمؤلف يعود بنا إلى المدينة . فعمر الآن شاب مراهق بدأ يعمل كنساج زرابي مثل ما فعل ديب نفسه . و(الحريق) الذي كان قد بدأ في الريف انتشر إلى المدينة أيضًا حيث غزا الفلاحون الجائعون والعراة المدن ليشاركوا في نفس العيشة الضنكة التي كان يحياها من سبقوهم ، وفي نهاية الثلاثية نجد عمر ، الذي أصبح الآن رجلا يقف بوضوح كرمز للتمرد الجزائري المتزايد . لقد شاهد ميلاد تطور الروح الثائرة للسكان بينما اكتسب هو وعيًا شخصيًا عن الحياة السيئة التي كان يحياها مواطنوه . وهو في طريق نمائه العقلي والروحي والعاطفي ، والبدني ، قد تعلم المعنى الحقيقي للاحترام الانساني . لذلك فالبطل عمر قرر أن لا يستريح حتى يحقق لنفسه وللبشرية هذا الوعي والاحترام والتفرد الجديد .

ويبدو أن ديب قد ركز على حاجة شعبية ملحة في استرجاع الكرامة البشرية أكثر من تركيزه على أي شيء آخر. فقد كتب «ان الاهانة، والشرف، والخوف، قد انهكت قوانا إلى العظم. اننا لم نعد نبدو كأوادم. إن من حق الانسان أن يعطي الاحترام الجدير به». ولكن ديب يلوم الاستعمار بصفة عامة على هذه الحالة. وهو في ثلاثيته الرائعة ينادي باعادة النظر في علاقة المستعمر بالمستعمر فهو يقول : «ان الاستعمار مهلك... ذلك أن المستعمر يعتبر عمل الفلاح ملكه الخاص. وبالاضافة إلى ذلك فهو يريد امتلاك الفرد أيضا (2)».

(1) محمد ديب « الحريق » — 1954 ، ص 133 .

(2) محمد ديب « الحريق » — ص 29 .

وبالرغم من أن ديب قد أوضح بأن الأقلية فقط تعتبر مسؤولة مباشرة عن الحالة الثورية في الجزائر فهو يضع اللوم بنفس الوضوح على الجميع طالما أن الأغنبية الكبيرة « رغم اخلاصها ومروءتها » لم تحرك ساكنًا . وهذا الموقف السلبي قد جعل فرنسا كلها مسؤولة عن أزمة الجزائر . وأخيرًا فانه يضع اللوم على « بني وي ـــ وي) الذين باعوا أنفسهم وإخوتهم بلا خجل لكي يحصلوا ويحافظوا على مراكز محظوظة في المجتمع الجزائري .

ادريس الشرايبي :

أما ادريس الشرايبي فقد ولد بالمغرب الأقصى عام 1926 ، من عائلة تنتمي إلى الطبقة الوسطى وهو الآن يعيش في فرنسا . وقد دخل الشرايبي الحياة الادبية بروايته « الماضي البسيط » التي نشرها عام 1954 . وهذه الرواية عبارة عن ترجمة شخصية تعبر عن شعوره الخاص بالغربة ازاء تراث اسرته . فهو يقول : « ان البطل يدعى ادريس فردي . لعله أنا نفسي . وعلى أية حال فان يأسه هو يأسي : يأس من الايمان . ان الاسلام الذي أومن به والذي ينص على المساواة وعلى مشاركة الله في كل عمل يقوم به الفرد وعلى التسامح وعلى الحرية والحب ، هذا الاسلام (الذي رآه الشرايبي كطالب مراهق في مدرسة فرنسية ينحدر إلى التعصب الأعمى) لم يعد سوى نظام اجتماعي وسلاح للدعاية (1) . » ورغم أن الشرايبي قد فر مؤقتًا إلى الثقافة الغربية ، فانه سرعان ما خاب أمله حين اكتشف أن النظام الفرنسي نفسه قد قام على البطش والفساد . ولذلك أبحر ادريس فردي ، بطل الرواية ، كما أبحر الشرايبي نفسه ، إلى فرنسا باحثًا عن ايمان وعقيدة جديدة .

ولقد كانت تجربته في فرنسا مصدر وحي لاحسن قصة كتبها الشرايبي حتى الآن وهي قصة « البهائم » التي ظهرت عام 1955 ، وهذه القصة تعتبر وثيقة دامغة عن حياة مهاجري إفريقيا الشمالية الذين كانوا يعيشون في مدن القصدير في ضواحي باريس . ان هؤلاء المهاجرين قد جذبتهم الاعلانات في عاصمة الجزائر ووهران وغيرهما من مدن المغرب العربي الكبيرة . وقد دفعهم الفقر إلى الهجرة

---

(1) ادريس الشرايبي « الحمار » ـــ باريس 1956 ، ص 13 .

آملين أن يخففوا من وطأة الشقاء على عائلاتهم . لقد هاجروا إلى فرنسا حيث « اليد العاملة مطلوبة والديموقراطية وافرة (1) » . ولكنهم بدل أن يحصلوا على عمل مربح وجدوا أنفسهم غير مرغوب فيهم . وهكذا ، انحدرت حياتهم إلى

اسفل مما كانت عليه حين كانوا فقراء في وطنهم . وقد أصبح لسان حالهم هو : « ليس هناك عمل ، ولا مسكن ولا مساعدة ، ولا أخوة . لقد كان لنا اسم في الماضي . لقد كانت لنا بطاقة تعريف مؤقتة ، وبطاقة بطالة . وبمعنى آخر لقد كانت لنا شخصية وعلامة وأمل غامض . أما الآن فنحن ــ بهائم ــ لسنا في السجن ولسنا في بيت فقير . ان أحدًا لا يرغب فينا ، حتى الصليب الأحمر (2) » . ان الانسان لا يملك إلا أن يعبر عن صدمته العميقة من الشقاء المادي والمعنوي الذي كان يعانيه هؤلاء المهاجرون الذين كانوا يعيشون حياة شبيهة بحياة كافكا الخيالية المليئة بالاحلام المرعبة . لقد كانوا يناضلون بلا أمل « لكي يحافظوا على أقل ما يمكن من الاحترام المادي الذي كان في الحقيقة أدنى من أي احترام (3) » .

اننا نجد في هذا الطلب المخيف الذي يتقدم به الشرايبي باسم مهاجري افريقيا الشمالية نفس العناصر التي لاحظناها في أعمال محمد ديب . ان الشرايبي يدعو الفرنسيين وغيرهم إلى فهم المشكل الجزائري واعادة النظر في علاقة الجزائر بفرنسا وفي علاقة الجزائريين بالمعمرين . ان هذا الكاتب ، مثل الكاتب السابق ، يوضح بأن هدف الجزائريين هو الكرامة الانسانية . ان هذا العبء يقع على كاهلهم كما يقع على كاهل المعمرين الذين ينتفعون منهم . ففي قصة « البهائم » نجد أن أحد الأوروبيين يقول :

« لقد استغل الأوروبيون العرب . اني بالتأكيد العن أولئك الذين جردوكم من بيوتكم ، أولئك الذين لم يعودوا يدرون ماذا يفعلون بكم ، أولئك الذين لم يعودوا يملكون حتى الشفقة عليكم . نعم انني أستطيع أن أكون موضوعيًا فاصدر

(1) الشرايبي « البهائم » باريس 1955 ، ص 121 .

(2) المرجع السابق ، ص 28 .

(3) اشار الشرايبي إلى هذا النص في غلاف قصة « البهائم» .

حكمًا عامًا معترفًا فيه بأن حضارتنا لم تعلمكم سوى اليأس . أجل انني أخجل من كوني أوروبيًا . ولكن عليكم أنتم ، يا أهل أفريقيا الشمالية ، يقع اللوم لأنكم لم تردوا الضربة . لقد استغلكم الآخرون دائمًا كأنكم تودون أن تكونوا مستغلين . انكم لم تكونوا قط لقطاء في بلادكم ، حتى قبل الفرنسيين ، بل من الأزل ، تتبادل عليكم الأيدي من جيل إلى جيل ، من قرن إلى قرن ، كبضاعة مملوكة (1) » .

لقد تأثر الشرايبي بفولكنر كما يظهر من استعماله للحوار الداخلي ، ومن تناوله لفكرة الزمن في قصة « البهائم » وهذه سمة فولكنر الغالبة . ان هاتين الفكرتين ، بالاضافة إلى النغمة التنبوئية تشرحان التشابه بين « البهائم » من ناحية وبين قصة فولكنر « ابسالوم ! ابسالوم ! » من ناحية أخرى . ورغم أن الشرايبي لم يخف أبدًا تأثره بهذا الكاتب الأمريكي فمن الواجب أن لا ننسى تأثر الشرايبي نفسه ، وغيره من كتاب إفريقيا الشمالية ، بالاساطير التقليدية الشرقية وكذلك فكرة الوقت عند العرب . ان هذا التأثر واضح من قصة الشرايبي الأخيرة « الحمار » ، التي ظهرت عام 1956 ، كما يظهر في رواية كاتب ياسين « نجمة » ، ففي « الحمار » التي هي عبارة عن مجموعة أساطير على النمط العربي التقليدي وضعت في اطار معاصر ، ينتهي الشرايبي من طريقة « التوثيق » التي سادت أدب افريقيا الشمالية في مرحلته الأولى ، ويعود إلى الأدب الخالص .

كاتب ياسين :

أما كاتب ياسين فقد ولد في السمندو ، قرب قسنطينة ، عام 1929 ، وهو مؤلف رواية « نجمة » التي نشرت سنة 1956 والتي تعتبر أحسن شاهد على ميلاد الجزائر الجديدة ، وقد استقبل النقاد والمفكرون الفرنسيون هذه الرواية بحفاوة بالغة ، كما اعتبروا مؤلفها أحسن من يمثل مدرسة افريقيا الشمالية الأدبية من غير الأوروبيين . ان نجمة ، بطلة الرواية الهاربة ، تمثل الجزائر الجديدة نفسها. ولعله من المهم أن نلاحظ الدور الذي أعطاه المؤلف لفرنسا في خلق هذه الشخصية الجديدة . فنجمة بنت امرأة فرنسية ولكن اباها الذي كان جزائريًا ، غير معروف . وقد قال ياسين اثناء استجواب بأن نجمة « هي روح الجزائر الممزقة من

(1) الشرايبي « البهائم » ــ ص 181 .

البداية والمهدودة بشتى التوترات الداخلية » فنجمة الغائبة والحاضرة دائمًا هي التي يلاحقها أربعة أبطال (رشيد ، الاخضر ، مراد ، مصطفى) . ومغامرات هؤلاء في البحث عنها تشكل اطار الرواية .

غير أن الرواية تعرض أيضًا المظالم السياسية والاقتصادية في الجزائر فياسين مثله في ذلك مثل كتاب افريقيا الشمالية ، يتحدث في روايته عن المظالم الكثيرة التي كان يعانيها وطنه . فهو يكتب « عشرون الفًا من تجار الكروم يتقاسمون الأرباح بينما نحن نشرب الماء ... ونحن نركب الحمير رغم أن موارد الحديد في (الونزة) تنتج أجود أنواع الصلب لصناعة الطائرات « النفاثة (1) » . ولكن ياسين يوجه غضبه أيضًا إلى مواطنيه الذين باعوا أنفسهم إلى المنتصرين لكي يخدموا أغراضًا أنانية . فهو يلوم هؤلاء على كثير مما يجري الآن . فقد كتب على لسان أحد أبطاله « حين غادر آباؤكم الجبناء القبيلة ليخدموا الفرنسيين كانوا يتوقعون أن يعودوا بعد ذلك أقوياء كما كان يقال . ليكن ذلك ولكن أين قوتكم الآن ؟ (2) » .

ان (نجمة) ليست مهمة فقط لأنها تعرض هذه الصور عن الجزائر بل أيضًا لانها تعتبر تجربة جديدة في شكل الرواية . فقد كتبت أساسًا على شكل نثر مشعور مما أثار كثيرًا من التعاليق وسط النقاد الفرنسيين . وهكذا نجد كاتب ياسين كثيرًا ما نوقش مع روب ــ غرييه ، ميشال بوتور ، ناتالي ساروت ، وغيرهم من الذين ينتمون إلى « مدرسة القصة الجديدة » . والذين حاولوا بنجاح أن يكتبوا القصة على نحو جديد . ففي بحث حديث كتب عن « القصة الجديدة » نجد هذا الوصف الرائع لعالم كاتب ياسين كما يظهر لقارىء « نجمة » :

« ان كاتب ياسين قد بنى عالمًا كوكبيًا فوضع الشمس (نجمة) في المركز ، ووضع من حولها عددًا من النجوم المختلفة الاحجام ، وهذه النجوم نفسها لها توابع . رغم أن الشمس تحتل مركزًا ثابتًا وتشع دائمًا تقريبًا بنفس القوة فاننا لا

(1) كاتب ياسين « نجمة » ــ باريس ، 1956 ص ، 8 .
(2) في نفس المرجع ، ص ، 147 .

نعلم عن هذه الشمس إلا من خلال الضوء الذي تعكسه على الاجسام التي حولها ، ولكنها تملك قوة تبعيد وتقريب هذه الاجسام من الضوء تبعًا لدوراتها المعتادة ، وما دامت الأجسام مرتبطة بهذه الحركة التي تعيدها إلى مركز الضوء حسب قانون ثابت ، فان النتيجة هي عودة دائمة نحو الشمس (نجمة) ، وامتزاج كامل بين الماضي والحاضر والمستقبل (1) » .

ان نجمة تذكر القارىء بفولكنر وطريقته الخاصة في تناول الوقت ، وذلك بعودتها المتتابعة إلى الماضي وافتتانها الخالد بالمنابع الأولى للانسان . ومع ذلك ، ورغم تأثر الجيل الجديد من كتاب فرنسا وافريقيا الشمالية بفولكنر ، فان على المرء أن يلتمس تفسير خاصيات هذه الرواية في مصادر أخرى . فالموسيقى والبناء الداخلي للقصة جاءآ نتيجة لفكرة عربية محضة عن (الانسان وجهًا لوجه مع الزمن) ... فالفكرة العربية هنا تدور في حلقة غير متناهية حيث يصبح كل منحنى عودة يختلط فيها المستقبل مع الماضي في ديمومة الحاضر (2) .

ان الاتجاه الامريكي (وخصوصًا اتجاه فولكنر) في نجمة ، وغيرها من أدب افريقيا الشمالية ، يمكن تفسيره إذن بالعودة إلى الثقافة العربية الخطابية والفكرية . فقد نجح ياسين كليًا ، ربما أكثر من زملائه ، في ابداع نظام جديد منسجم من العادات القديمة في شتى أشكالها (من بنجامين كونستانت إلى فولكنر) وكذلك من خاصيات الخطابة عند العرب التي هي جزء من تراثه التقليدي . حقًا أن ياسين ينتمي إلى أهل الفكر (Lettrés) فاسمه يعني«كاتب»بالعربية ، ورغم أنه يستعمل الفرنسية كلغة كتابية « فانه يتحدث العربية في الحياة اليومية (3) » ومع أن الكتاب غير الأوروبيين من أهل افريقيا الشمالية قد استعملوا لغة أجنبية للتعبير عن أفكارهم الاسلامية ، فانهم قد حاولوا ــ وخصوصًا محاولة ياسين الناجحة ــ أن يحافظوا على طبيعتهم التقليدية الخاصة . ان هذه الحقيقة تعطي أدب افريقيا الشمالية نكهة القصة الشرقية التي تعتبر ميزة من ميزاته .

---

(1) انظر (القصة الجديدة) في مجلة ايسبري عدد جوليه واوت سنة 1958 ، ص 219 .

(2) ياسين ــ غلاف المرجع السابق .

(3) انظر فرانس اوبزرفاتور ــ ديسمبر 31 ، 1957 ، ص 13 .

ومن الواضح أن كتاب افريقيا الشمالية غير الأوروبيين بصفة عامة ، يعيشون في عالمين : عالم افريقيا الاسلامية والعالم الفرنسي في تفكيرهم ومشاعرهم التواقة (1) » . ان يقظتهم تعود في أغلب الأحيان إلى اتصالهم ومعرفتهم بالثقافة الفرنسية ، وقد أصبح من المبستحيل عليهم أن يتركوها ويعودوا إلى الماضي الذي يحاولون الابتعاد عنه تمشيًا مع القرن العشرين . ولكن يستحيل عليهم في نفس الوقت أن يقطعوا علاقاتهم بعالم طفولتهم وشبابهم وتراثهم الثقافي الخاص .

ان وضعهم اليوم يزداد صعوبة فالعالمان اللذان جاءوا منهما يعيشان في حرب ، والتوترات تزداد حدة كل يوم بين الثقافتين اللتين يخشى هؤلاء الكتاب أن احداهما يجب أن تترك المجال للأخرى . انهم ممزقون بين عالمين ولكنهم غير قادرين ، وغير مريدين ، أن يختاروا أحدهما . « انهم يحاولون أن يرفضوا الاخطاء السياسية والاجتماعية التي قد تؤدي بهذين العالمين ، إلى عداوة دموية ، لأنهم يعتقدون أن هناك أخوة بين هذين العالمين ، وأن فكرة « العداوة الدموية بينهما تعتبر حلمًا مزعجًا لا يمكن التسامح معه (2) » . لقد رأينا من أعمالهم سواء كانت ترجمة شخصية تصور الغربة الثقافية أو وثائق تعكس الحالة الاجتماعية للأهالي ، انهم مقتنعون بضرورة تغيرات عميقة في العلاقات بين المستعمر والمستعمر . ومع ذلك ، ورغم بلاغة وحدّة النداء الذي يوجهونه في هذا المجال، ورغم نغمتهم المرة في معظم الأحيان ، فان القارىء لاعمالهم يعجب دائمًا من اعتقادهم العميق بضرورة المحافظة على علاقاتهم بالعالمين اللذين يؤثران اليوم في شخصية افريقيا الشمالية . فالقاص التونسي البير ميمّى قد عبر عن هذه الفكرة حين قال : « ان الكثير منا نحن الذين رفضنا وجه أوروبا في تونس لم نفعل ذلك لاننا نريد رفض أوروبا كلها . كل ما نريده هو أن أوروبا تعترف بحقوقنا مثل ما كنا مستعدين أن نقوم بواجباتنا ... باختصار كل ما رغبنا فيه هو مجرد اصلاح أحوالنا (3) » .

غير أنه يجب الاعتراف بشخصية المغرب العربي . ولا شك أن الأدب الجديد لافريقيا الشمالية يعطي سببا واضحا لضرورة هذا الاعتراف . ذلك أن هذه المنطقة

(1) انظر الشرايبي « الحمار » ص 14 .

(2) نفس المرجع .

(3) انظر ميمي « صورة مستعمر (بالفتح) ، باريس 1957 — ص 173 .

قد أغنت الادب الفرنسي حتى الان ، وهناك شواهد كثيرة تدل على أنّ هذه المساهمة ستزداد مستقبلا كمية وكيفية ، ولا سيما اذا كان الادباء قادرين على ان يكرسوا وقتهم وجهدهم في المشاكل الادبية الصرفة بدل غسل مواهبهم الادبية التي لا ينكرها أحد بماء الدعاية لاحد الطرفين ، ولكن إذا إستمر النزاع القائم الان في المغرب العربي فإن من المحتمل أن كتاب افريقيا الشمالية لن يستطيعوا تجاهل نداء وطنهم وعائلاتهم وماضيهم رغم علاقاتهم الثقافية والعاطفية بفرنسا .

القضايا العربية في الأدب الجزائري *

رغم الأسوار العالية ، والقضبان الفولاذية ، فقد كانت هناك نافذة صغيرة تتطلع منها الجزائر إلى الخارج ... خارج السجن الذي عاشت فيه طوال الحكم الفرنسي . ولم يكن هذا التطلع إلى الخارج بلا هدف ، أو خاليًا من التعبير عن إحساس داخلي عنيف ، بل لقد كان تطلعًا نحو جهة واحدة معينة هي جهة الشرق العربي ، وكان تعبيرًا عن إحساس وجداني أخوي تثيره الروابط والمصالح والمصائر المشتركة .

كان الشرق كما جسده الأدب الجزائري في أذهان المواطنين مهد الحضارة وحرم العروبة ومهبط الوحي . ومن ثمة فهو حلم الخلاص ، وطريق الوحدة الشاملة . وقد كانت هذه المشاعر التي يثيرها الفكر في كل عصر ، ويغذيها الأدب في كل جيل ، هي مشاعر العروبة في سذاجتها الأولى كما عاشت في أعماق أجدادنا ، مفكرين ، وأدباء . وكان التقاء المشاعر العربية على قضية واحدة في العصور التي ساد فيها الجمود ، واستولى فيها الاجانب على مقاليد الأمة العربية ، هو المظهر البارز للعروبة التي عاشت في كيان أمتنا جذوة وهاجة رغم المكائد والاستعمار والحواجز .

---

* كتب سنة 1960 ولم ينشر .

وقد وقف كثير من الكتاب والأدباء الجزائريين يدعون الشعب ، ويوجهون الشباب إلى الشرق لينهل من علمه،ويقتدي بزعمائه،ويحفظ تراثه.وهم إذ يرسمون هذا الاتجاه لا يعنون بالشرق مصطلحه الجغرافي أو السياسي ، وانما كانوا يقصدون الشرق في مفهومه العربي أو القومي ، وذلك في مقابل اتجاه آخر حاول الاستعمار أي يغري به طبقة من شباب الجزائر المثقفين ... اتجاه غربي ، يؤمن بالغرب في حضارته وماديته ، ويعمل للغرب في يومه وغده ، وبالتالي كان هذا الاتجاه يرمي إلى فصل الجزائر عن كيان الامة العربية . وقد تصدى له أكثر من شاعر وأديب جزائري ، يحذرون الشباب أن يقع في الاحبولة ، أو يغتر بما في أسلوب هذا الاتجاه من بريق وخداع ، فيقول أحد الشعراء الجزائريين البارزين في هذا الصدد :

يا شباب اتجه إلى الشرق واحفظ	كلّ كنز له إليه انتساب
إنما الشرقُ للعروبة كهفٌ	آمنُ الظل بالأذى لا يُصاب
إنما الشرق نسبةُ العَرَب الاحرا	ر لم تنقطع لها أسباب

وهناك قضايا عربية كثيرة عاشتها الجزائر في أدبها وفكرها ، وفي أعصابها وجهادها . منها قضية فلسطين ، واستقلال أجزاء من الوطن العربي كالسودان وليبيا ، وثورة مصر ، وانشاء الجامعة العربية ، والمعارك الأدبية ، ومناسبات التكريم أو التأبين لعظماء الشرق من كتاب وشعراء وقادة ومصلحين .

فلسطين : ولعل أهم قضية عربية احتفى بها الأدب الجزائري ، هي قضية فلسطين ، فقد نوه بها الكتاب في الصحافة الوطنية ، وتغنى بها الشعراء في مناسبات متعددة مما جعلها شغل الرأي العام . فكانت حملات التطوع لتحرير فلسطين ، وفتح مشاريع التبرعات لمساعدة الثوار ، وتأييد الجيوش العربية ، ومقاطعة بضائع اليهود في كل مكان ، كما خصصت الصحافة الافتتاحيات الضافية والأبواب الدائمة لدراسة طبيعة فلسطين وأهميتها التاريخية والقومية للعرب . وقد اشترك في الدعوة إليها ، والكتابة عنها كبار ادباء الجزائر ومفكروها أمثال : ابن باديس ، والمدني ، والابراهيمي ، والعقبي ، ومحمد العيد ، وسحنون . فكتب عنها شيخ ادباء الجزائر محمد البشير الابراهيمي سلسلة من المقالات الافتتاحية في (البصائر) كانت تفيض عاطفة وحمية ، دعا فيها الشعب الجزائري إلى مزيد من

البذل ومشاركة الشعب العربي هذه القضية القومية ، وهاجم فيها بعض الاوضاع الرجعية في الشرق آنذاك . وخلد الشعراء شهداء ثورة 1936 ، وأبطال معركة القسطل ، كما اهاجوا العواطف أثناء حرب 1948 ، وهاجموا التقسيم ونادوا بالثأر وتوعدوا اليهود . كل ذلك في شعر ينبض بالحب لفلسطين والنقمة على أعدائها ، والحزن على جزء غال من الوطن العربي تهدده الضياع ، وتقاسمته الأهواء :

قل لابن صهيون اغتررت فَلا تَجُزْ	إن ابنَ يعرب ناهضٌ للثأر
سترى أمانيك التي شيدتَها	منهارةً مع ركنك المنهار
القدسُ لابن القدس لا لمشرد	متصهين ومهاجر غدار

عظماء الشرق : ولكن الأدب الجزائري الذي يستمد وحيه من الواقع العربي ، ويعرب عن آمال الشعب الجزائري من خلال احساسه الشرقي ، وارتباطه التاريخي ، كان يعبر عن القضايا العربية بأسلوب آخر قد يسميه البعض مشاركة وجدانية ، ولكني اسميه روح القومية العربية التي كان الادب من روادها الصادقين . فقد كان الأدباء الجزائريون دائمي التطلع الى ما يجد في الشرق من أحداث وطنية أو أدبية ، وكانوا حريصين على أن لا تفوتهم المشاركة في التعبير عن هذه الأحداث التي يعدونها من صميم حياتهم القومية ، فاذا فقد العرب بطلا أو مفكرًا أو شاعرًا راح أدباء الجزائر يبكون مع الباكين ، ويحزنون مع الحزينين ، وإذا احتفى الشرق بشاعر أو عظيم اشترك هؤلاء الأدباء — كتابًا وشعراء — مع المحتفين ، وعبروا عن فرحة شعب الجزائر واغتباطه بالوسام الذي يُعلق على صدر العظيم ، والتاج الذي يوضع على رأس الشاعر .

حدث هذا حين ابّن ادباء الجزائر جمال الدين الافغاني ، ومحمد عبده ، وشكيب ارسلان ، وعمر المختار ، وغازي العراق ، وشوقي وحافظ والرصافي واضرابهم . فقد انشد الشعراء القصائد الباكية ، وعدد الخطباء المآثر الجليلة . وحدث هذا حين توافد الأدباء العرب لتكريم شوقي ومبايعته بامارة الشعر ، وقد أبى الاستعمار على ادباء الجزائر أن يشاركوا أخوانهم في عيد الشعر العربي ، فحجر عليهم السفر وراقب تنقلاتهم ، ولكنهم لم يستسلموا للهزيمة ، وأصروا على تكريم شوقي على بعد الدار وكثرة الحواجز وباركوا خطوة الأدباء الجريئة .

معارك الأدب : وفي الفترة التي احتدمت فيها معارك الأدب في الشرق العربي ، وظهر الخصام بين المدرستين اللتين عرفت احداهما بالتعصب للقديم ، والأخرى بالتعصب للحديث ، رأيت أدباء الجزائر يدخلون في هذا العراك والخصام ينتصرون لاحدى المدرستين على الأخرى وقلما وقفوا على الحياد . ولما كان أكثر الأدباء الجزائريين من المحافظين فقد أعجبوا بالشخصيات التي كانت تدافع عن القديم ، كشخصية الرافعي وشكيب أرسلان ، ولم يؤيد المدرسة الحديثة في ذلك الوقت سوى قلة من الأدباء .

وكان لمجلة (الشهاب) الفضل في ربط أدباء الجزائر بحركات الأدب العربي في جميع قطاعاتها حتى في المهجر ، حيث كانت تنشر الفصول والمقالات والقصائد نقلا عن مجلات عربية محافظة أو مجددة سواء أكانت تصدر في الشرق (كالرسالة) أم في المهجر (كالسمير) . وكان من نتيجة هذا التلاقي والتلاقح الفكري أن تأثر بعض الأدباء والشعراء بمدرستي المهجر وأبوللو وجماعة الديوان ، والتزم الباقون الجانب المحافظ في شيء من الاصرار والعناد .

القنال ... والجيش : ومن القضايا العربية الهامة التي عاشها الأدب الجزائري ثورة الشعب المصري على الانجليز التي طالب فيها بالغاء معاهدة 1936 وعودة القناة إلى أصحابها ، وكانت هذه الحادثة أفقًا جديدًا يطل منه أدباء الجزائر ويعبرون من خلاله عن مشاعر الشعب الجزائري نحو الشعب المصري. وقد اغتنمت جريدة (البصائر) هذه المناسبة فأصدرت عددا ممتازًا اشترك فيه كبار الأدباء والشعراء والمحررين الذين تحدثوا عن العلاقات التاريخية والأدبية بين مصر والجزائر وعن مكانة مصر في قلوب العرب ، وحثوا الشعب على الجهاد والاصرار على محاربة الانجليز حتى النصر واعتذر شعراء الجزائر عن شعبهم الذي لا يملك في ذلك الوقت سلاحًا يرد به كيد المعتدين ولا حرية يعبر بها عما يجيش في صدره من عواطف الحب والاخلاص للشعب المصري المكافح :

فوا أسفــاه بالآهات جُدنـــا ... وما بالنـفس فينـــا من جَواد
أكـلُّ سلاحِنـا رفـعُ احتجـاجَ ... على العدوان ، أو فتحُ اعتماد ؟

أما حين انتصر الجيش العربي في مصر ، وحرر بلاده من الفساد والاقطاع ،

فقد استبشرت الجزائر ، واعتبرت هذا الانتصار نافذة أخرى تطل منها على دنيا الحرية التي كانت دائمة التطلع إليها في شوق ولهفة ... وقد تلقى رجل الشارع خبر الانتصار بالفرحة التي غمرت قلبه ، وتلقاه الأدباء بالمقالات المسهبة والصور الشعرية الرائعة ، والعواطف المخلصة . أليس هذا الحدث الكبير :

صوت حقٍ دعا المليكَ فلبّى   مسرعًا ، والوزيــرَ والفلاحــا

وقد رآها الشاعر مناسبة مواتية ليذكّر ربة الديك (فرنسا) برغبة الشعوب في الحرية ، وان السجون التي تعج الآن بالأبرياء لا بد أن تسقط ذات يوم ، ونعى عليها صمتها وعقابها الدائم لكل من ينادي بالانعتاق في حين أن الديك الذي تتخذه هي شعارًا لليقظة والانطلاق ، قد صحا من نومه ، وصاح في النائمين يدعوهم إلى رؤية الفجر واستقبال الصباح :

وعجبنا (لربة الدّيك) تلحى ** مَن صحا مِن كراه ، والديك صاحا

الجامعة العربية : وكان قيام الجامعة العربية حدثًا هائلًا في نظر الجزائريين الذين رأوا فيها منبرًا لخطبائهم ، ومسرحًا لقضيتهم . لذلك اعتبر أدباء الجزائر عيد الجامعة العربية عيدا عربيا تاريخيًا ، احتفلوا به في صحفهم ، ونوهوا به في محافلهم ، وذكروه في أشعارهم وقصصهم بكل ما يليق بهذا العيد من الحفاوة والتبجيل ، سيما ونحن نعرف أن الجامعة العربية قد تبنت قضية المغرب العربي منذ قيامها ، وخصصت لها مكانًا بارزًا بين جملة قضاياها العربية .

وأحب أن أختم هذه الكلمة بكلمة كتبها أحد الأدباء الجزائريين بمناسبة عيد الجامعة العربية تحت عنوان (عيد العروبة) ، قال : « ... عيد العروبة عيد أمل ورجاء ، هو عيد التحرر المأمول ، والتحرير المرتجى ... تحرر العرب من الاستعمار ، وتحرير العلم من النظم القائمة على الباطل ... تشارك فيه الجزائر العربية مشاركة الراغب في التحرر ، المتضامن مع بني جنسه العاملين للتحرر ... والجزائر ــ رغم الاسر والاغلال ــ تشارك في العيد العربي بكل ما في عروقها من دم عربي ، وما في فؤادها من شعور عربي ، وما في أخلاقها من وفاء عربي ، وان حاول الاستعمار أن يقتل فيها كل ما هو عربي ، بفصلها عن

التجسم العربي . وما درى الاستعمار ان الروابط أقوى من أن تقطعها جرة قلم أو تحول دونها الحدود والسدود ، أو توهنها الأغلال والقيود ... عيد العروبة عيد المستقبل الباسم ستصبح جامعة (الدول) العربية جامعة (الشعوب) العربية ، وسيفتتح التاريخ للعرب سجله الذهبي ليخطوا فيه لهم ، وللعالم عهدًا جديدًا بأحرف من نور :

والشمس إنْ غربت عنـــا فمرجعهـــــا
للشرق حتى كأن الشمس لم تغب » .

الجمعيات والنوادي الثقافية في الجزائر

ان نظرة سريعة إلى المجتمع العربي في الجزائر * — قبل الثورة — كافية لتبرهن على مدى ما يعيشه هذا المجتمع من اختناق ، وما يعانيه من حرمان في ظل الاحتلال الفرنسي . وليس من شأن هذا المقال أن يحصي جميع الأوضاع التي خلقها الاحتلال . والأهداف التي كان يرمي اليها وراء ذلك . ولكنه على أية حال لا يجد بدًا من القول بأن عامل التفرقة — بشتى معانيها — كان أهم العوامل التي استند اليها منذ خبر النفسية الجزائرية ، ودرس العوامل الكبرى التي توحد بين الجزائريين وتجمعهم على كلمة سواء . فقد ابتدأ من أول وهلة بالدين فحاربه في أماكنه المقدسة وفي رجاله الاحرار ومبادئه التقدمية ، ثم حارب اللغة العربية بشتى الوسائل التي من أهمها القضاء على المدارس العربية والتراث العربي . كما ابتدأ في حرب نفسية خبيثة ترمي إلى بث الفرقة والشك في القيم وفي المستقبل وفي الانسان العربي أينما كان . وأصبحت الجزائر بفضل هذا الجهاز اللاانساني مجموعة مقاطعات تكاد تكون منفصلة تجارة وفكرًا واحساسًا تعيش على الماضي الجامد بالنسبة إلى الجيل القديم وتعيش على الحاضر المبتور بالنسبة إلى الجيل الجديد .

ومنذ استيقظت الجزائر على النداءات الوطنية والاصلاحية أوائل القرن الحالي

---

* نشرت في « الآداب » البيروتية ، عدد 11 نوفمبر 1959 .

وهي تحاول التخلص من هذه الرواسب العفنة - بوسائلها المختلفة ، فقامت مدارسها وصحافتها ورجالها ونواديها وجمعياتها المتعددة برسالة كبيرة في هذا الصدد ، وقد كان لكل مكان عنوان ، ولكل قائد اسم ، ولكل منظمة شعار . ولكنها كانت تتفق في القضاء على مخلفات الماضي ومحاولة اعادة البناء النفسي للمجتمع الذي هدمته الدعاية المغرضة ، ومحاولة اعادة الثقة ونشر الوعي الثقافي والسياسي بين أفراد الشعب . ولا شك أن وسائل التوعية قد اختلفت كما ذكرت حسب درجة التطور والشعور بالحاجة ... فكان الفضل الأول للمدرسة والصحيفة والمحاضرة والخطبة تلقى هنا وهناك في موضوعات من صميم السياسة أو الثقافة .

ثم تطورت الصحيفة والمدرسة ، وتطور أسلوب المحاضرة من الخطبة ووجد شيء آخر جديد كل الجدة على المجتمع الجزائري ، مفيد له كل الافادة بالنسبة إلى مجتمع مثله يعيش على الماضي الجامد في بعض طبقاته ، وعلى الحاضر المبتور في البعض الآخر ... ونعني بهذا المخلوق الجديد المفيد : ما أنشىء من نواد وما أسس من جمعيات يضاف علمها وانتاجها إلى ثمرات المدرسة والصحيفة حيث تتعاون جميعها على خلق مجتمع عربي سليم في الجزائر قوامه الايمان بالحرية المطلقة والمستقبل الأفضل

ولست أريد أن أنسب الفضل في خلق هذا العنصر الجديد من وسائل اليقظة الجزائرية إلى شخصية بذاتها أو حزب باسمه أو هيئة صغيرة أو كبيرة بعينها ــ لأني اعترف أن كل منظمة وطنية سواء أكانت حزبية أو غير حزبية ، قد شاركت بنصيبها في هذا الميدان . ومهما كان حظ هذا النصيب من الضخامة أو الضآلة فانه يعد على كل حال ظاهرة اتفاق بين المسؤولين من أبناء الجزائر . على أن للنوادي والجمعيات رسالتها الكبيرة في تنمية الوعي القومي ، وفي نشر المبادىء بين المواطنين . ولا بد من الاشارة هنا الى المجهود الكبير الذي بذله رسول اليقظة العربية في الجزائر المرحوم عبد الحميد بن باديس ، فقد عمل هذا المصلح طاقته في سبيل أن يحتفظ الجزائريون برباطهم المقدس الذي يجمعهم على كلمة واحدة دينًا ولغة ، ماضيًا ومصيرًا . فكان أول مشجع لتلاميذه واتباعه على تأسيس النوادي وتكوين الجمعيات التي تجمع اليها الشباب وتضم الطبقات المختلفة من أفراد

الشعب حتى أنه كان يفتتحها بنفسه ويتولى رئاستها الشرفية ويحضر بعض اجتماعاتها .

ويجب التفرقة بين نوعين من الجمعيات والنوادي . فهناك أولا النوادي والجمعيات التابعة للحركة الوطنية الجزائرية أيًا كان مشربها ، وهذه قد انشئت بجهود الجزائريين . وهناك ثانيًا النوادي والجمعيات التي يشرف عليها ويديرها الاحتلال ، إما مباشرة وإما بواسطة أتباعه ومؤيديه من الجزائريين أنفسهم . ولكلا النوعين رسالة وخطة . أما الخطة فتختلف بحسب الزمن والظروف وبحسب الامكانيات المادية والمعنوية . وأما الرسالة فهي تحقيق الوعي الاجتماعي والثقافي والسياسي من جهة الوطنيين ، وهي تفتيت كلمة الشعب وتخدير أعصابه بالكلمات الافيونية والعطاءات السخية — للبعض — وما شاكلها مما يغتر به شعب لا يعرف لكلمات الرفاهية والحضارة والثقافة ، تحت الاستعمار ، الا مدلولاتها القاموسية أو معانيها التاريخية السحيقة .

ولعله من أصعب الامور أن نذكر أول نقطة من تاريخ الحركة الوطنية وأول خط سارت فيه دون انتكاس أو التواء ... إن للحركات الوطنية عمومًا بداية احتمالية قد تكون من مفترق تاريخي متشعب ، وقد تكون من طفرة هائلة تنسينا الماضي بهيكله الضخم ونجد أنفسنا أمام حاضر يختلف كل الاختلاف عما كنا نتوقع أو نأمل ، وكما أنه من الصعب علينا تحديد أية حركة وطنية ، يصعب علينا كذلك أن نؤرخ بالتدقيق لأول جمعية انشئت بالجزائر وأول نادٍ ظهر فيها . ومع هذه الصعوبة المزدوجة فاننا نستطيع أن نقول إن انشاء الجمعيات والنوادي كان مرتبطًا بظهور النشاط الوطني نفسه . ففي مطلع هذا القرن كان الحديث عن السياسة وعن الجندية التي فرضتها فرنسا على الجزائريين ، وعن الحرب العالمية الأولى ونتائجها ، وعن حركة الأمير خالد . وعن مصير تركيا بالذات (اذ كان سلطانها الديني وصيتها السياسي ما زال يجد صدى في الجزائر) .

وإلى جانب هذه الأحاسيس الاجتماعية والسياسية نجد أحاسيس من نوع آخر لعلها أعمق وأشد تأثيرًا ، وهي تلك الدعوة التي ظهر بها الشيخ ابن باديس . الدعوة إلى اليقظة العلمية والثقافية والى انشاء المدارس ونشر التعليم وبناء مجتمع

جزائري عربي له كيانه القوي ... وقد رافق هذين الاتجاهين الحاجة إلى أماكن الاجتماعات والى منتديات تجمع إليها النخبة وأشباهها من أبناء الجزائر وإلى خلايا تساعد على التنظيم الداخلي للشعب واستغلال طاقاته في الأعمال المجدية سواء أكانت خيرية كمساعدة الفقراء والايتام أم كانت ثقافية كانشاء المدارس واحياء العادات . وعسى أن يكون (نادي الترقي) بالعاصمة أول ناد أنشيء على النظام الحديث وكان له من النظام والاتساع وحسن الادارة ما جعله يسهم بدور فعال في تاريخ الجزائر الحديث ، فقد احتضن الحركة الوطنية منذ 1927 حيث عقدت فيه المؤتمرات الهامة وانبثقت عنه كثير من الأفكار الوطنية كفكرة جمعية العلماء ، والمؤتمر الاسلامي ، ومشروع البصائر ... وإلى جانب ذلك كان ملتقى السياسيين وجمهور العلماء والمثقفين ، وكان مثابة للأدباء والشعراء تلقى فيه الخطب الحماسية والقصائد الرائعة والابحاث الهامة في مستواها الشعبي أحيانًا ، وفي مستواها العلمي أحيانًا أخرى . ومن الشعراء والأدباء الذين لمعوا فيه وذاع صيتهم منه : محمد العيد ، والعمودي، وبوكوشة ، والزاهري ، والسنوسي ، والبدوي ، وأبو اليقظان ... وقد قال فيه الشاعر محمد العيد يخاطبه :

صفت بساحتك الوجـوه	ورددت فـيك الحكـم
فرأيت ما يجلـو العمـى	وسمعت ما يجلوُ الصمـم
ودخـلت ظلك أستجيـر	به. وأنعـم من أمـم
واتـيت ميـدان الـلسان	به وميـدان القلـم

وقد سبق (نادي الترقي) في العمل (نادي صالح باي) بقسنطينة الذي كان يؤمه الشيوخ من الجيل الماضي أمثال عبد القادر المجاوي وأبو القاسم الحفناوي . وكان الشيخ الأديب المولود بن الموهوب ـ وهو أحد المؤسسين له ـ يلقي فيه أشعاره ومسامراته وبعض المحاضرات في الاصلاح والتصوف . غير أن هذا النادي لم يكن يجاري النهضة الجديدة فتخلف عن القافلة الشعبية .

وانتشرت بعد نادي الترقي نواد كثيرة في انحاء الجزائر ، سيما بعد تكوين الأحزاب وتنافسها على اجتذاب الرأي العام . فكنت لا تجد مدينة خالية من ناد أو نواد متعددة النزعات يرتادها الشيوخ المصلحون واعداء المصلحين أيضًا ،

ويتناقشون في الشؤون التجارية والثقافية والسياسية . وقد قال الشيخ الابراهيمي انه كان لذى جمعية العلماء وحدها أكثر من سبعين ناديًا تحمل رسالتها وتضم أتباعها ، ومثل هذا يقال في نوادي حزب الشعب وحزب البيان ...

ففي مدينة البليدة كان يوجد (نادي النهضة) 1932 و(نادي التقدم) 1935 يغشاهما الادباء والقادة يخطبون ويسمرون . وفي الأول يقول محمد العيد من قصيدة طويلة :

قل للخطيب به دعوت مليًا وعنت لك الآذان والاحداق
نادي (البليدة) محتويك وطيرها مصغ اليك وماؤها صفاق
دوخ به الغبراء فهو اريكة وأصعد به الخضراء فهو براق

وقال في نادي التقدم :

منار به صوت العروبة يعتلى وكهف به نشء البليدة يحتمي
وغيل منيع فانزلوه وأقبلوا عليه تباعًا ضيغم إثر ضيغم

وفي مدينة سكيكدة كان هناك (نادي العمل) 1936 الذي كان يرأسه الشيخ عبد الحميد بن باديس ، وقد كان يقوم برسالة كبيرة نحو الأدب والسياسة ومكافحة الأمية ومحاربة العادات المتأخرة .

وفي تلمسان كان (النادي الاسلامي) و(نادي الشبيبة) وكانا معًا مجالًا للدعوة الاصلاحية والانبعاث الوطني .

وفي سطيف كان (نادي الارشاد) 1936 الذي كان يرأسه السيد فرحات عباس . وكان هذا النادي يخدم أيضًا السياسة والاصلاح معًا .

ثم في شرشال (نادي الاخوة) وفي العاصمة (نادي الشبيبة) وفي قسنطينة (نادي ابن باديس) و(نادي باتنه) و(نادي تبسه) و(نادي قنزات) ... وبالاضافة إلى هذه النوادي في كل مدينة وقرية كبيرة نواد أخرى تابعة للكشافة الجزائرية تؤدي دورها في التربية تحت شعارات وطنية هادفة .

ومن الملاحظ أن هذه النوادي على اختلافها كانت تستعمل في أوقات معينة

للارشاد كرمضان وأيام الانتخابات وبعض الأزمات السياسية ، محلية كانت لم خارجية . وأغلب تلك النوادي كان أصحابها يقدمون خدمة جليلة للأدب العربي ، فقد كانوا يقومون بتأليف الفرق التمثيلية التي تمثل الروايات العربية مترجمة أو موضوعة . وكانوا يجمعون اليهم العناصر العاملة في حقل الأدب كالشعراء والصحفيين والاساتذة المختصين حيث يلقون ابحاثًا ودراسات تختلف موضوعًا واتجاهًا .

أما الجمعيات فمن الصعب أيضًا تحديد بداية تأسيسها ونشاطها . غير أنه في امكاننا أن نزعم بأنها قد سبقت النوادي في التكوين ، وبالخصوص تلك النوادي التي أشرنا اليها والتي كانت تحمل رسالة وطنية ضخمة . ورغم قلة المراجع التي بين أيدينا فقد حصلنا على ما يفيدنا قدم عهد الجمعيات الجزائرية ، فهذا صاحب (التقويم الجزائري) الشيخ محمود كحول ينشر في السنة الثانية من كتابه المطبوع سنة 1913 صورة لأعضاء كل من الجمعيتين : الرشيدية والتوفيقية ، ويذكر بجانبها أهم الأعمال التي تتولاها كل منهما . والجمعية الأولى مؤلفة من قدماء تلاميذ المدارس الفرنسية ــ العربية بقصد نشرْ العلوم ، ويضمها مجلس مختار وهي تقوم بأعمال أدبية واصلاحية محلية . أما الجمعية التوفيقية فيقول عنها انها جمعية ودية تهذيبية خيرية أدبية علمية تألفت منذ سنوات ، وقد تولى رئاستها الدكتور ابن التهامي ويتألف مجلسها من 12 عضوًا ، وهي تقوم بتدريس اللغة العربية والرياضيات وبعض الألعاب .

ونستطيع ان نفهم بسهولة أن هاتين الجمعيتين تنتميان الى السلطة الحاكمة وتعملان بوحي منها . ولعل السلطة ــ وقد رأت مقدار تعلق الجزائريين بميراثهم ، ومقدار الشعور الذي بدأ يخامرهم ، والهمسات التي راحت ترتفع في كل مكان منتقدة ومستنكرة ــ لعلها حين رأت ذلك أوعزت إلى من دعا وعمل على تكوين هاتين الجمعيتين اللتين تعملان لخير الجزائريين في الظاهر على الاقل .

ومن الجمعيات الوطنية الكبيرة التي ظهرت في الجزائر (جمعية العلماء) التي اعلنت رسميًا سنة 1931 برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس ، وقد كان لظهورها صدى هائل في الجزائر آنذاك لأنها كانت تحمل شعارًا أزعج سلطة

الاحتلال من ناحية ، وأثار مخاوف الرجعيين والجامدين من أبناء الجيل الماضي من ناحية أخرى ، هذا الشعار هو العروبة والاسلام ، والدفاع عن القومية العربية والدين الاسلامي في سماحته الأولى ، وقد لاقت هذه الجمعية في أول الأمر معاناة ومضايقات شديدة ولكن سرعان ما تطورت فكرتها وكثر اتباعها .

ويمكن أن نقسم الجمعيات الباقية إلى فرعين . الفرع الأول جمعيات للاصلاح ونشر الثقافة وأعمال البر . الفرع الثاني جمعيات تخدم الآداب والفنون . وقد حتم الوضع في الجزائر أن تكون الأغلبية من الفرع الأول إذ أن الحاجة كانت ملحة إلى نجدة الشعب أخلاقيًا وبدنيًا أكثر من حاجته إلى النجدة في الذوق والوجدان . ومن هنا راجت فكرة الجمعيات الاصلاحية الخيرية وتألف منها عدد كبير في أهم المدن الآهلة ... ومن ذلك (جمعية الشبيبة) بالعاصمة و(الجمعية الخيرية) التي يقول فيها الشاعر الاجتماعي محمد العيد :

دامت لنا حرما آمنا وجامعة كبرى نلم بها الأحزاب والشيعا
(خيرية) تحت حزب ظل يكلؤها في جانب الله لا خوفًا ولا طمعا
على اسمها التف كالدوحات محتفلا وباسمها اقترح الخيرات واقترعا

ومن ذلك (دار الخيرية) بالعاصمة أيضًا ، وقد قال فيها الشاعر نفسه :

يا دار شادك للخيرات أخيار فيضي على الناس بالخيرات يا دار
بشرى الجزائر صُنْتِ اليوم صبيتها كما تصون فراخ الطير أوكار

أما الجمعيات الأدبية الفنية فبالرغم من أن المجال كان ضيقًا ، وبالرغم من أن المتذوقين للادب والفنون كانوا أقلاء فانها استطاعت أن تشق طريقها ، وإذا ما كبا الحظ بإحداها نهضت الأخرى تؤدي نفس الرسالة . ولا نستطيع أن نزعم بأن الأدب قد وجد سوقًا رائجة في الجزائر ولكن باستطاعتنا أن نقول إنه كان حيًا في تلك الصحافة التي تقدم منه النفحات الرائعة وفي تلك النوادي التي تزاحم الجمعيات المختصة كنادي الترقي وغيره . ثم في هذه الجمعيات الصغيرة التي نحن بصددها .

ففي سنة 1936 تألفت جمعية (اخوان الأدب) في وهران برئاسة الشاعر محمد

سعيد الزاهري ، وفي نفس السنة تأسست في سطيف (جمعية السعادة) لاحياء فن التمثيل العربي ، وفي مدينة قسنطينة تأسست (جمعية محبي الفن) التي كان كاتبها الفنان محمد النجار . وقد وضعت هذه الجمعية جوائز مختلفة لمن يسهم بأحسن رواية عربية للتمثيل . وفي نفس المدينة تأسست (جمعية المزهر للموسيقى) وكان مديرها الفنان الأديب أحمد رضا حوحو ، وهي جمعية موسيقية وطنية مهمتها خدمة الموسيقى العربية في كافة عصورها ، ولا سيما الموسيقى الاندلسية والمغربية . وقد كان الرابط بين هذه الجمعيات المختلفة هو تلك المتعة الروحية التي تغذى بها الشعب الجزائري في أيامه الحالكة.

وإلى جانب ما ذكرنا توجد فرق وجمعيات تمثيلية أخرى كفرقة محي الدين باش تارزي وفرقة الطاهر فضلاء للتمثيل العربي . وفي الحق أننا لم نرد بما ذكرنا وضع احصائية دقيقة عن الجمعيات والنوادي المختلفة وكل ما نريده من هذه الكلمة هو اعطاء عينات للقارىء حتى تكون لديه فكرة عامة عن مجالات النشاط الفكري وألوان العمل الاصلاحي في الجزائر قبل الثورة ، وبالذات منذ بداية اليقظة القومية بها .

في طريق « الياذة جزائرية »

أرض الملاحم

التاريخ قدر مشترك يحتفظ بجميع الأحداث والتطورات الانسانية منذ فجر الحياة ، ويسجل جميع الخصائص التي ميزت هذه الحياة ، وعدلت سلوكها بالنظر إلى جذورها النامية الخاضعة لتأثير النشوء والارتقاء . بيد أن تلك الأحداث والتطورات ، أو بتعبير علمي المادة الخام التي يتألف منها التاريخ البشري ، لها مميزات اعتبارية تجعل الاجزاء المؤلفة لتلك الماهية الكلية ذات مقاييس مختلفة باعتبار الزمان والمكان والطبائع والتقاليد ... ومن هذه النظرية أصبح تاريخ كل أمة متميزًا عما عداه بألوان وخصائص من حيث النظر إلى تلك الأجزاء المكونة للحقيقة الكلية المشار إليها . فتاريخ الأمة اليونانية القديم مثلًا ، ذو صبغة بيئية حين ينضاف إلى تاريخ الأمة العربية في جاهليتها . وهذا له ذاتية خاصة لا تتوفر لسواه من حيث اضافته إلى تاريخ الأمة الاسلامية بعدُ ... ثم أن الثورات الشعبية العنيفة والأحداث الاجتماعية العظمى ، نتيجة لما تنطوي عليه روح الأمة من سمو ونضج وهي أبرز المعالم والألوان إذا قيست بنوع التفكير ومظهر الحياة ... ومن ثمة أمكننا أن نقول : ان الحادث العظيم هو البرهان القوي على ما يضطرب في كيان الأمة من مطالب وغايات إنسانية ، تسعى جهدها لتحقيقها . وهو الذي يعطينا كمية تلك المطالب والغايات ووجوه الأهمية فيها .

ولعل المتتبع لحلقات التاريخ بعناية واخلاص يظفر بسلسلة ملتحمة الاجزاء من

الثورات الكبرى كانت جميعها مصدر الهام للمفكرين نضجت في ظله القرائح والأقلام فخلّدت للأجيال الطالعة تاريخًا من البطولات حافلا بأناشيد العظمة الثائرة في اندفاع وقوة ... فلقد كانت حرب طروادة باعثة لهوميروس على خلق الالياذة ، وكان هوميروس ذاته توطئة لظهور شخصية عبقرية خالدة هي شخصية سقراط العظيم . وكانت الحروب العربية في الجاهلية الأولى موحية بانشاء ملحمة « عنترة » المشهورة التي تعتبر أول الياذة عربية وعاها التاريخ . بل كان ذلك الصراع العنيف وتلك الحروب الطاحنة ، ارهاصات للنبوة التي ما لبثت أن أصبحت نقطة تحول في تاريخ الانسان ... ومثل ذلك ينطبق تمامًا على شاهنامة الفردوسي التي سجلت مصارع الفرس ومحيطهم ... ثم طلع العصر الحديث . فكانت اليقظة العربية وكان الاندفاع التحريري ، وكان الشعور بالقومية ينمو في ظلال الحركات المختلفة ، وكانت نكبة فلسطين الشهيدة ... وهذه جميعًا حملت الشعراء العرب في مختلف الاقطار على ن يطلوا من زوايا حاضرهم على أدب الملحمة ، الذي تحدثت عنه (الآداب) ضمن ما تطرقه من مواضيع حيوية . والذي يكاد يخلو منه الأدب العربي على مرونته واتساع آفاقه .

وبعد . فان هذه اشارات خاطفة أو عرض سريع ، يهمنا من ورائه إثارة سؤال هو : أيكون التاريخ الجزائري قديمًا وحديثًا خلوًا من الثورات أو الحروب العنيفة الخارقة التي توفرت فيها جميع شرائط الملحمة وخصائصها ؟ وإذا كان الجواب ايجابيًا ــ وهو كذلك لا محالة ــ فما هي البواعث الأولى التي جعلت شعراء الجزائر يهملون هذا الجانب العظيم من تاريخهم القومي ؟ هذا هو المشكل الذي نثيره . وهو الذي نحاول الاجابة عنه بشيء من السرعة ... تاركين الاستقصاء والتأني إلى من يهمه البحث في الموضوع ...

ويمكننا تفريع الجواب إلى قضيتين : قضية تاريخنا وخصائصه الخالدة ، وقضية النهضة الشعرية وآثارها . فان تاريخنا على غموضه (1) حتى الآن ، كانت جميع

---

(1) لا نريد بكلمة (غموض) في هذا الصدد ما يريده منها الاستعمار من اذابة الروح التاريخية ، وامحاء ذاتيتنا ، بل نقصد الى ان هذا التاريخ لم تكشف ـ بعد ـ اسراره كشفا يجعلنا نقف على معالمه المضيئة ، وندرس خصائصه الخالدة في جميع العصور .

فتراته حافلة بالحوادث الجسام مفعمة بألوان الصراع والبطولة . ومن ثمة نستطيع أن نقول : إن أرض الجزائر أرض ملاحم نتيجة لمكانتها الجغرافية ، ومشاركتها الفعالة في تثبيت أسس الحضارة الانسانية منذ العصور الأولى، وقلما يوجد شبر منها لم تسقه الأقدار دما، و لم يكن مسرحا لحادثة تاريخية عظمى، فهي من هذه الناحية غنية بمواد الملحمة . وقد نبأنا الزمان بانها من أضخم الأمم حضارة لو أنصفها التاريخ ، وأقواها على العدو شكيمة في ميدان الحروب . فكيف أهملت معالم العظمة في ذلك التاريخ والاستعمار بالمرصاد يتلمس الثغرات للطعن في تراثنا ومقوماتنا التي هي رأس مالنا من مجد العروبة ؟ ان ماضي الجزائر مشحون بالانقلابات الخطيرة . ومن اعلقها بالاذهان (حادثة الكاهنة) و(مقتل عقبة) و(نكبة الأمير) و(واقعة شهر مايو) وغير هذه وتلك من الانفعالات الشعبية التي كان لها تأثير عظيم في الاتجاهات والعقليات . وهي الزاوية التي تطل منها الأجيال على ما للامة من اندفاع وحركة . ومن المجازفة الظاهرة عدُّ شعر الأمير عبد القادر الحربي شعر ملاحم ، فهو رغم ما فيه من انطباعات ورموز وتلسلسل خال من عناصر الملحمة الأساسية ... وقد كدنا نسمي قصيدة (ذكرى 8 مايو) للشاعر الجديد أحمد معاش الباتني ملحمة جزائرية لولا اختلال بعض الشرائط الاصيلة التي يجب توافرها لتستقيم الملحمة على سوقها .

وإذا كان التاريخ الجزائري بهذه المنزلة من حيث توافر عناصر الملاحم فيه ، فمن المسؤول عن اهماله حتى أصبحت خطوطه باهتة لا ظل فيها ولا ألوان ؟ الحق أن تحرير الشق الثاني من الجواب الذي نحاوله محرج ، وليس وجه الاحراج في ذلك لما يترتب عليه من الاقرار بوجود شعراء يمثلوننا في آلامنا وآمالنا أو عدم وجودهم ، فان هذا في الحقيقة نتيجة لحكم الأمة والتاريخ والاجيال ، بل لما فيه من تحديد لدعوة عريضة طالما هتف لها شعراؤنا ، وداسوا لبلوغ أهدافها جماجم الموتى ورقاب الأحياء . ولعل هذا التحديد نفسه يستحفزهم للوثوب ، ويضيء لهم الدروب المظلمة التي يروقهم الرقص في افيائها ، ويحملهم على ترك الاجترار وحفر القبور . وما دمت قد لحت فلا بد أن أقول : إن شعرنا المعاصر لا يمثلنا مهما تواضع وحمل الفانوس السحري إلى المغاوير ، فابرز ألوانه المناسبة والحكاية وجر الذيول . و« الجيد » منه لا يعدو حدود المعاني المكرورة والألفاظ الجاهلية ، وان شعراءنا

بمعزل عن الأمة ومقتضيات الانسانية، وليس بينهم من تحمل الأمانة التاريخية، ونهض برسالة الشعر على وجهها الصحيح، وكان لأمته القابعة في الظلمة مكان هوميروس في اليونان، وشعلة لنهضة جديدة قوية تتجاوب مع الروح العربية الحديثة، وتواكب تيارات العصر الجديدة (*).

* نشرت في مجلة « الآداب » اللبنانية العدد 4 لعام 1954 .

1 ـ فهرس الاعلام

2 ـ فهـرس البلـدان والاماكن

3 ـ فهرس الشعوب والاجناس

4 ـ فهرس الكتب

5 ـ فهرس القصص

6 ـ فهرس الجرائد والمجلات

7 - فهرس القصائد

8 - فهرس الروايات والمسرحيات

الفهرس